الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية
قسنطينة

معهد الحضارة الإسلامية
قسم اللغة العربية والدراسات القرآنية

التناسب في القرآن الكريم

دراسة أسلوبية موضوعية

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالب :
خيال لخضر

بإشراف
الدكتور : سليمان عشراتي

السنة الجامعية : 1419-1420هـ/1998-1999م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهداء

إلى والدي العزيز وأمي الوفية

إلى روح شقيقي الغالي الذي

كان يحث على التخصص في

هذا الميدان ..

إلى كل من

ساعدني من بعيد أو من قريب

في إعداد هذا البحث

إلى من كان سببا في كوني

والتي وقفت بعدها بعد تعثر

إلى هؤلاء جميعا .. يهدي أبو

عبد الناصر هذا العمل المتواضع

ولله الحمد والمنة

1998.04.24

ليلة أول محرم 1419

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

* شكر وتقدير *

1) انتهى البحث . لكن الذي سينال شكره هو فضيلة الدكتور المشرف السيد عشراتي سليمان ، والذي كان له الفضل في سريان الحياة فيه بعد أنه كان أن يموت ، فكان بحق . نعم المشرف ، ونعم الجواد فقد جاد بعلمه . وبتوجيهاته . فكان بيته بيتي ولا أذكر أني زرته مرة غائبا . فكان يستقبلني وكأنه هو الذي في حاجة إليّ ولست أنا .. وهذا كله يستوجب مني أن ارفع يديّ داعيًا الله أن يجعله نورًا يستضاء به فهو يحق كما قال الشاعر :

إذا فطق جاء بكل مليحة وإن سكت جاء بكل مليح

أنبل وتلميذك البار

2) جامعتي العتيقة ، أنت التي عزفت فيك معاني الكمال . ودقة الجمال . عذوبة العلم ، وحرارة طلبه الحلوة . لا يسعني الآن إلا أنه أقدم إلى حضرتك هذا العمل المتواضع والذي أرجو أنه ألقى به الله وهو عني راضٍ .

أساتذتي الأفاضل ، وعلى رأسهم فضيلة الدكتور عوف لخال والذي تمتعت بعلمه وبنا تشاته في أواخر رحلتي العلم فكان نعم المعين ونعم الشاهد لهمتي . يا الروح الطاهرة صدف الغزالي الذي لا زالت راحته تجود بأرواح هذه الجامعة يا فقيدنا جميعًا . نشكرك ونقدرك ولله الحمد والمنة .

تلميذكم الوفي

تمـــهـــيد

كم يشد البحث صاحبه حيث يضع نصب عينيه حقيقة علمية لتقريرها وقد توفرت الوسائل والمراجع والأدلة ، غير أن البحث الأشد جدارة بالإهتمام والعناية والإعتناء هو ذلك الذي لا يعرف صاحبه الحقيقة حتى ينتهي منها بعد ان يفك ألغازه ويحل إشكاله.

فما هي إلا محاولة ليس إلا ، بعد إسداء الفضل والمنة لذوي الفضل في جامعتنا المباركات وأساتذتنا الأخيار، من مدرس البلاغة والبيان كوسيلة ومفسر معين للأحكام كموضوع. أما وقد وضع الباحث رجلة على عتبة البحث العلمي فلا يسعه إلا أن يتقدم بالشكر الجزيل والدعاء العريض المضمخ بالحب والإحترام والإكرام **إلى كل من علمني حرفا منذ نعومة أظافري حتى صارت صلبة تكتب حول موضوع علمي.**

غير أن الموضوع تتقاسمه الدقة والذوق ، فكل شيء في تناسبه نسبي ، وعادة مثل هذه المواضيع النسبية تدق أحيانا وتظهر أخرى ، لذلك لا أقول إلا ما قالت أعظم عبقرية في القرن العشرين ، إنه "*أنشتاين*" وهو يحاول أن يعرض نظريته النسبية بأبسط ما يمكن ، حينما قال : " إنك إن جلست ساعة من الزمان مع زوجة جميلة تحبها وتحبك ، فإن هذه الساعة تمر كأنها خمس دقائق أو أقل ، أما إن جلست مع حماتك الشمطاء التي تعمل على خراب بيتك خمس دقائق فقط ، فقد تمر عليك كأنها خمس ساعات أو خمس سنوات"[1]. هذا قوله في جانب الدقة التي ذكرنا ، أما من جانب الذوق فقد قال : " إن الموسيقى هي اللغة التي يفهمها الجميع " .

فأرجوا بعد هذا أن لا أكون ثقيل الظل طويل الوقوف.

---

(1) إسمه ألبرت أنشتاين (ALBERT EINSTEIN) ولد سنة 1879/03/14 ببلدة أولم (ULUM) بألمانيا نشأ في أسرة عادية ، أبوه هرمان أنشتاين (HERMAN EINSTEIN). صاحب النظرية النسبية الشهيرة

المـقـدمـة

القرآن الكريم كتاب الله الخالد ، دعامته التوحيد وموضوعه الإصلاح ، أنزله الله بلسان عربي مبين ونزّله في نيف وعشرين سنة في وقائع شتى وأحداث متنوعة ، فعالج هذه وتلك بأنواع من الأساليب وألوان من الفنون والضروب بين إيجاز وإطناب ، وقصة ومثال ، وسؤال وتقرير ، تم بعد هذا جمع القرآن كسفر واحد برواية رسول الله ﷺ، عن جبريل -عليه السلام- عن ربه مبتدءا بحمد الله تعالى منتهيا بالتعوذ من شر الجنة والناس.

وترتيب القرآن الكريم على هذا الشكل توقيفي لا شبهة فيه ، مما يجعلنا في غنى عن مراجعة بعض الأقوال المنتحلة ، روى الإمام *أحمد* عن *عثمان بن أبي العاص* أنه كانت جالسا عند رسول الله ﷺ إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال: " أتاني جبريل فأمر أن أضع هذه الآية هذا الموضع من السورة ، إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى...."(1).

فكيف يؤمر بوضع آية في موضع معين من سورة معينة إذا لم تكن هناك سورة معروفة مرتبة من بينها هذه السورة التي كانت تنقصها هذه الآية ، وروى *الإمام مسلم* عن *عمر بن الخطاب* -رضي الله عنهما- قوله "...ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بأصبعه في صدري وقال:" تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء" ، فهل بقي شك في أن الآيات لم تكن مرتبة ترتيبا توقيفيا.

---

(1) يراجع في هذا الشأن الأحاديث الواردة في أسباب النزول في الكتب التالية :
- علوم القرآن، البرهان في علوم القرآن، الإتقان في علوم القرآن، ...

وقديما قال الأئمة أن السورة الواحدة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق أوله بآخره ويترامى بجملته إلى غرض واحد ، والقائلون هم *النيسابوري والرازي وأبو بكر بن العربي وبرهان الدين البقاعي والشاطبي* وغيرهم كثير.

أما في العصر الحديث -وبعد مطالعتي السريعة للكتب التي تتحدث في مثل هذه الموضوعات- ففي البعض من هذه الكتب يرى أصحابها أن الإشتغال بدراسة العلاقة بين السور وترتيبها في القرآن لا فائدة منه ، وبعضهم ينفي أن تكون هناك علاقة تربط بين السور فضلا عن وجودها بين أجزاء السورة الواحدة.

والحق ما يراه علماؤنا قديما وحديثا من وجوب الإهتمام بالدراسات الموضوعية لوجود المناسبات الرابطة بين أجزاء السورة الواحدة وبين أجزاء الآية الواحدة مفردة ومفردة، وحرفا وحرفا. والجلي في هذه الدراسات -على ما لها من فضل- أنها جعجعة قليلة الطحين ، فهي تنظيرية أكثر منها تطبيقية ميدانية ، إلا ما كانت من نماذج متفرقة بعضها خصص البحث لها وبعضها تتخلل بعض كتب التفاسير.

من أجل هذا عمدنا في هذا البحث المتواضع على تقصي الحقيقة في ذلك ، بإنصاف المحاولين في ذلك ومحاولة التنسيق بين آرائهم ما أمكن مضيفين إلى ذلك ما نراه ملائما ومناسبا لمقتضى هذا البحث.

غير أن المؤسف حقا ، رغم توفر همة البحث ، هو صعوبة هذا الزمان ، وهذه الظروف في وضعنا هذه الأيام خاصة ، من ظروف أمنية ومالية ، وأن بيوتنا عورة ، أضف إلى ذلك كله بعد الشقة ، وهو بعد ثلاثي ، فيفصلني عن المشرف بمدينة وهران أكثر من أربعمائة كيلومتر وعن قسنطينة ما يزيد عن سبعمائة كيلومتر وكان يكلفني ذلك التنقل أقل من خمسة عشر يوما ، هذا مع فقر الولاية

التي أقطنها للمراجع فضلا عن المصادر ، وكل هذا كلفني حوالي ثلاثين مليون سنتيما وكلف أهلي من وراتي استعارة الدقيق بالمكيال ، غير أن ذلك كله يعد أمام البحث هينا ، وكل صعب وشديد يعد لينا مادام خالصا لوجه الله مع أني لم أجد -إلا نادرا- إلا من يصرفني عن المضي في هذا البحث قائلا: "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها" ، وبحمد الله لم أستسلم لذلك كله ، ومضيت قدما محاولا وهي محاولة ربما تشفع لي عند الله حتى ولو لم أبلغ مناي منه.

وللأمانة العلمية ينبغي أن أذكر في هذا المقام شيئا أراه مهما وهو أني أمر بظروف نفسية عصيبة تجعلني أتخلى عن مواصلة البحث من الحين إلى الاخر حتى لا تنتقل عدواها إلى البحث ، فتؤثر في أسلوبه أو نمطه.

ثم إن مهمة الإمام الخطيب كان لها الأثر الواضح في أسلوب هذا البحث ، إلا أن أهم ميزة نلتها خلال هذا البحث هي تأثري بسمت وصمت فضيلة المشرف ، فقد كان له الأثر البالغ في رزانتي ورتابتي خلال مراحل البحث كلها عدا المبحث الأخير، والمتمثل في الجانب التطبيقي فقد استأذنته كي أشفي غليلي باستخراج مكنون النفس حول هذه النظرة الجديدة القديمة وأحسب نفسي لم أتجاوزها إلى سواها.

وأكرر مرة أخرى أن ترتيب القرآن توقيفي من الله ، وأن هذا الترتيب من شأنه أن يعين المفسر والفقيه والمؤرخ والأديب على حد سواء لما يحمله من أسرار ، كما أشير هنا ، إلى أن هذا البحث يتغنى به الكثير وحاول فيه الكثير ، إلا أنه -في رأيي وحسب ما وقعت عليه يدي من مراجع- لا زال بكرا جديدا بحاجة إلى التقصي ، وقد اعتمدت في بيان كل ذلك صحة الأثر من حجج نقلية ، أو عقلية ، مستشيرا بأراء أهل البلاغة والبيان ، إذ هما أهم مصدرين في هذا البحث.

كانت هذه هي الهممة الدافعة والمقدرة الجامحة ، تلك مع إشكالية هذا البحث ، جعلتني أتردد بين نقيضين ، محبة الإكتشاف ووعورة الطريق. فوجدتني أحير من دمعة حزن بجفن عاشق ، يدفعها الأسى ويمنعها الحياء.

إنها تلك التساؤلات التي تتراقص أمامي كلما باشرت المصحف بالتلاوة. إنها محاولة إيجاد نظرية يتكامل فيها البيان بين أجزاء السورة الواحدة -على الأقل- فقرة فقرة ، معنى معنى ، مفردة مفردة ، أسلوبا وصوتا ونسقا ، حتى تمسي السورة الواحدة كصورة واحدة تتعدد ألوانها وتتفق أجزاؤها.

إن الذي حملني على دراسة هذا الموضوع هو انشغالي منذ الصغر محاولة إيجاد العلاقة الرابطة بين أجزاء السورة القرآنية الواحدة لكن دون جدوى. ففي السورة الواحدة تتعدد الأغراض ، فمن الحديث عن الإسراء ينتقل بك السياق إلى الحديث عن موسى ، من الحديث عن الصلاة او الزكاة إلى الحديث عن نبي صالح أو طاغية فاجر. فكنت لا أتمالك نفسي فأقول:

- "هل يعد هذا ركاكة في الأسلوب ؟ ...حاشا لله...هذا كلام الله..."

- "هل يعد خلطا عند الجمع ؟ ...لا أبدا فالله تعالى يقول ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه﴾[1] "

ثم أهرع إلى ما تيسر من تفاسير فلا أكاد أظفر بشيء ، يدل على ذلك وما إن وفقني الله تعالى بالترشح لتقديم هذه الرسالة إلا وكانت فكرة حل هذا الإشكال أول طارق تحدثني نفسي باستضافته ، فهممت بما توفر من مراجع محاولا جمع مادة هذا الموضوع.

---

(1) سورة القيامة الآية(16)

وتعد التفاسير عماد هذا الموضوع إضافة إلى كتب البلاغة والبيان ، أما الكتاب المحدثين ، فيتناولون مثل هذه المواضيع تحت عناوين شتى ، كالوحدة الموضوعية والتناسق والتناسب والتصوير الفني ...وكان سيد *قطب* -رحمه الله- يكاد يكون الوحيد ضمن زمرة قليلة أمثال الإمام *الزمخشري وسعيد حوى* -رحمهما الله-.أقول يكاد يكون الوحيد الذي طرق الباب بقوة وجعل به فجوة إلا أنه لم يفتح الباب على مصراعيه.

أما باقي التفاسير فبيانها لهذا الفن يكاد يكون نقاطا بلا حروف فأحسن عبارة تستهويك لديهم هي (...وبعدما انتهى من الحديث من .....انتقل إلى الحديث عن....) ، وهي إشارة نسبية لوجود علاقة بين موضوعات السورة الواحدة منهم على الأقل.

ولولوج هذا الميدان الخصب ، وهذه الأفكار الأبكار استقر الرأي على طرق الموضوع تحت عنوان "**التناسب في القرآن الكريم دراسة أسلوبية وموضوعية** ".

وقد قسمت الموضوع إلى تمهيد ، ومقدمة وفصول تتفرع إلى عدة مباحث ، متجنبا بإذن الله تعالى توضيح كل واضح ، متغاضيا عن كل بسيط متقصيا كل مهم دون تقصير مخل أو تطويل ممل.

أما التمهيد ، فهو تمهيد أشرت فيه إلى أن بحثي هذا هو محاولة الإجابة عن سؤال وتقدير لذوي الفضل عن فضلهم.

وقد تم تقسيم موضوع البحث إلى بابين كبيرين ينطوي كل باب منهما على عدة فصول ومباحث.

أما الباب الأول فيضم ثلاثة فصول ، الفصل الأول يحتوي على مبحثين فمطلبين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تطرقت في المبحث إلى تعريف المناسبة وعلاقتها بالوظيفة البنائية ، ثم تناولت أنواع التنزل القرآني لعلمي أن المباحث التالية له لا تتضح إلا بتناوله ، وقد مررت في تفصيلها باختصار شديد.

أما المبحث الثاني ، فقد تعرضت فيه إلى المناسبة في تفاسير المتقدمين والمتأخرين بشيء من التفصيل أحيانا والنقد أحيانا أخرى.

أما الفصل الثاني فقد تعرضت فيه إلى شمولية المناسبة ، ويشمل هذا الفصل ثلاث مباحث ، يدور الأول حول تنوع الأساليب في القرآن الكريم ، أما المبحث الثاني فيدور حول السياق القرآني ، وعلاقة المجاورة بين السور القرآنية ، أما المبحث الثالث فجاء فيه الحديث حول بعض المقومات الخطابية ، وقد اقتصرت على أهمها ، الإلتفات والحذف.

أما الفصل الثالث فيشتمل على مبحثين ، أولهما يتحدث عن بنية السورة والتناسب الأدائي والموضوعي مع ذكر بعض النماذج المطولة في ذلك ، وهو يشمل حوالي سبع وقفات تناسبية ، والمبحث الثاني فقد خصصته لدراسة صوتية نغمية ويشمل كذلك ست وقفات تناسبية.

الباب الثاني والأخير فيشمل دراسة تطبيقية نموذجية على سورة قرآنية وعلاقة الجوار بينها وبين السورتين السابقتين واللاحقتين لها ، وهي بمثابة حوصلة ونتائج لكل الفصول والمباحث السابقة ، كما هو مبين في فهرس المواضيع.

وبعد هذا لست أزعم أني أحقق كل ما أردت ولكن ما بينته كان غايتي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الباب الأول :

المناسبة ، أسباب النزول والوظيفة البنائية

الفصل الأول :

المبحث الأول :
المبحث الثاني :

الفصل لثاني :

المبحث الأول :
المبحث الثاني :
المبحث الثالث :

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول

المناسبة والوظيفة البنائية:

علم المناسبة علم جدير بأن يكون قواما للتفسير كيف وقد أضحى لزاما أن المعاني لا تتضح إلا بالنظر الشامل والتفحص الكامل ، فإنك إن أردت أن تصف لأحد ما منظرا ما لا يعرفه ، أو جسما لم يسبق له أن شاهده ، لا يمكنك أن تفصل أجزاءه دون توضيح الشكل العام.

فإذا أخبرته عن صفة الفيل –مثلا– في أيام متفرقة ، بأن وصفت له الخرطوم ثم الذيل ثم الجثة بعد ذلك ، فإن هذه الأجزاء ستندثر في ذهنه ، أما إن عرفته بالشكل ككل ، فالصورة سترتسم في ذهنه بكل وضوح.

قال *ابن عربي* في سراج المريدين: " إرتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة متسقة المعاني ، علم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل في سورة البقرة ، ثم فتح الله لنا فيه ، فلما لم نجد له حملة ختمنا عليه وجعلناه بينا وبين الله"[1] ، وفائدة ذلك كله جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الإرتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء.

يقول *السيوطي*: " ذكر الآية بعد الآية إما أن يكون ظاهر الإرتباط بتعلق الكلم بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى فواضح وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على وجه التأكيد أو التفسير أو الإعتراض أو البدل ، وإما ألا يظهر الإرتباط..."[2]

---

(1) الإتقان في علوم القرآن – السيوطي– ص323

(2) الإتقان في علوم القرآن – السيوطي– ص324

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تعريف المناسبة:

- تعريف المناسبة لغة :

جاء في مادة نسب ، نسب ، نسبا ونسبة : الرجل : وصفه وذكر نسبه ، وناسب مناسبة : شاركه في النسب وكان قريبه ، ماثله وشاكله و لائمه.

والنسبة والنسبة : القرابة وهي إيقاع التعلق وارتباط بين الشيئين.

والأنسب : إسم تفضيل يقال ، هذا الشعر أنسب من ذاك ، أي نسبا[1]

وجاء في القاموس الجديد للطلاب[2] ، النسب هو المصاهرة والقرابة ، قال تعالى ﴿وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا﴾[3]

ويقال بالنسبة إلى كذا ، أي بالنظر و الإضافة إليه.

ومن هذا المناسبة في العلة في باب القياس ، الوصف المقارب للحكم ، لأنه إذا حصلت مقاربته له ظن عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم ، ولهذا قيل المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول ، وكذلك المناسبة في كل شيء[4]

---

(1) المنجد في اللغة والإعلام –دار الشروق بيروت– ط28 مادة النسب

(2) القاموس الجديد للطلاب –المؤسسة الوطنية للكتاب– الجزائر *علي بن هادية وبلحسن* .....

(3) سورة الفرقان الآية(54)

(4) البرهان ج1 ص35

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- تعريف المناسبة إصطلاحا :

يقول *الزركشي* : "المناسبة في فواتح الآي وخواتمها مرجعها إلى رابط بينهما ، عام أو خاص ، عقلي أو حسي أو خيالي وغير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني ، كالسبب والمسبب ، والعلة والمعلول ، والنظيرين والضدين ، ونحوه أو التلازم الخارجي، "[1].

واستنباطا من هذه التعريفات ، فإن التناسب في إصطلاح هذا البحث هو كما يلي: التناسب هو العلاقة الرابطة بين آي القرآن الكريم وموضوعاته سواء كانت الرابطة أو العلاقة بين جملة وجملة ، آية وآية ، موضوع وموضوع ، سورة وسورة أو مجموعة سور وسواء كانت هذه العلاقة موضوعية أو بيانية أو بلاغية أو صوتية أو بنيوية ، المهم أن تساهم في إيجاد نسق عام يشكل وحدة فنية متزنة تضفي على السورة الواحدة أو مجموعة السور لونا من الألوان يجمعها حتى تمسي كالصورة الواحدة تتعدد ألوانها وتتفق أجزاؤها.

وهذا الذي أردنا كما قال *فتحي الدريني* : " كل متسق لا تناقض بين جزئياته مع كلياته " ، وبناء على القاعدة الأصولية والتي تقضي أن المناسبة هي ربط الحكم به مظنة تحقق حكمة الحكم ، وبناء على هذا الشرط لا يصح التعليل بالأوصاف التي لا مناسبة لها ولا ملاءمة بينها وبين الحكم ، كلون الخمر وسيولتها وطعمها ، والتي تسمى بالأوصاف الطردية أو الإتفاقية"[2] ، وهذا ما أشرنا إليه آنفا.

---

(1) البرهان ج1 ص35

(2) الوجيز في الأصول مؤسسة الرسالة ، بيروت – د. عبد الكريم زيدان– ص206 ، ط3

وهذه الروافد التي إصطحبناها في هذا التعريف بلاغية كانت أو صوتية اوغيرها -كما جاء في التعريف- تساهم في جعل هذه الوحدة التناسبية وحدة متوازنة متكاملة تضفي على السورة الواحدة أو مجموعة السور لونا من الألوان يجمعها ، وإذا أعتبرنا أن كلام *عز الدين بن عبد السلام* -والذي يقضي بمنع التكلف في إيجاد العلاقات الوهمية بين آي القرآن الكريم- فإنه قيد واجب وهو حسن الربط حسب الدواعي ، وما كانت آي القرآن الكريم لتكون أشتاتا مبعثرة ، إنها كلام الله تعالى ولقد خلق وأنزل كل شيء بقدر ، وتفكك القرآن الكريم يعني العبث والله منزه عنه **﴿لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون﴾**[1]

---

(1) سورة الأنبياء الآية(18)

* التنزل القـــرآنـــي:

أ- لماذا الحديث عن التنزل ؟

على الرغم من أن حديثنا هو عن المناسبة و التناسب في القرآن الكريم وهو ما يقتضيه البحث ويحث عليه على الرغم من ذلك فإن هناك ثمة محطات إجبارية تستدعي الوقوف عندها و تأكيد الحجز لديها ، إذ لا يتفق لنا كلام ولا تستقم لنا قاعدة دونها ، وهذه المحطات هي بيان معنى القرآن و كيف نزل ولماذا نزل لأنه كما يقول *عبد العظيم الزرقاني* : " إن العلم بنزول القرآن أساس للإيمان بالقرآن وأنه كلام الله وأساس للتصديق بنبوة الرسول ﷺ وأن الإسلام حق ، ثم أنه أصل لسائر المباحث الآتية بعده في علوم القرآن ، فلا جرم أنه يتصدرها جمعاء ليكون من تقريره وتحقيقه سبيل إلى تقريرها وتحقيقها ، وإلا كيف يقوم البناء على غير أساس ودعام ؟ "[1].

---

(1) مناهل العرفان في علوم القرآن – محمد عبد العظيم الزرقاني– ج1 ، ص40

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ب- معنى التنزل القرآنـي:

النزول يطلق في إستعمال اللغة ويراد به الحلول في مكان والأويُ به ومنه قوله عز وجل ﴿ربِّ أنزلني منزلاً مباركاً و أنت خير المنزلين﴾[1] ، ويكون معناه كذلك تحريك الشئ من عُلو إلى سُفل ومنه قوله تعالى ﴿أنزل من السماء ماءاً﴾[2].

أما التعبير بمادة النزول القرآني من الكتاب والسنة فمنها قوله تعالى ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾[3] ، وقوله ﷺ (إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف)[4].

ومن هذه المعاني ندرك أن إنزال القرآن هو الإعلام في جميع إطلاقاته وهو المفهوم المتبادر إلى الأذهان دونما اللُجوء إلى متاهات الفلاسفة(*) في هذا المجال والذي يكفينا أن الله سبحانه هو المنزل و أن القرآن هو المنزّلْ وأن الرسول محمد ﷺ هو المنزلُ عليه ليبلغه للعالمين أجمعين ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾[5].

---

(1) سورة المومنون الآية(29)
(2) سورة فاطر الآية(27)
(3) سورة الإسراء الآية(105)
(4) يراجع باب النزول القرآني في كتب الحديث ، فتح الباري.
(*) يراجع في هذا الملل والنحل –ابن حزم– كتب علوم القرآن ، التفاسير الصوفية وبعض أراء التفاسير التي تعتمد العقل لتبرير كيفية نزول الوحي.
(5) سورة النحل الآية(44)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جـ- تنـــزلات القـــــرآن :

يقول *عبد العظيم الزرقاني*:" شرف الله هذا القرآن بأن جعل له ثلاث تنزلات :

1- التنزل الأول:

التنزل الأول وكان إلى اللوح المحفوظ ودليله قوله سبحانه وتعالى ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾[1] وكان جملة لا مفرقا ، لأنه الظاهر من اللفظ عند الإطلاق ولا صارف عنه.

وحكمة هذا النزول ترجع إلى حكمة وجود هذا اللوح نفسه ، والإيمان بـــــاللوح وبالكتابة فيه أثر صالح في إستقامة المؤمن على الجادة قال تعالى ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير﴾[2].

2- التنزل الثاني:

التنزل الثاني وكان إلى بيت العزة في السماء الدنيا ودليلها قوله تعالى ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾[3] ، وفي سورة البقرة ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾[4] ، وتوصف هذه الليلة أنها مباركة أخذا من قوله تعالى ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين﴾[5] وتسمى ليلة القدر أخذا من آية سورة القدر وهي من ليالي شهر رمضان أخذا من سورة البقرة وقد أشار إلى ذلك صاحب المناهل .

---

(1) سورة البروج الآية(21،22)
(2) سورة الحديد الآية(22)
(3) سورة القدر الآية(1)
(4) سورة البقرة الآية(185)
(5) سورة الدخان الآية(3)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وتدل على ذلك روايات منها وأشهرها ما أخرجه *ابن مردويه* و*البيهقي* عن *ابن عباس* أنه سأل *عطية بن الأسود* فقال:" أوقع في قلبي الشك قوله تعالى (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) وقوله (إن أنزلناه في ليلة القدر) وهذا أنزل في شوال ، وفي ذي القعدة وفي ذي الحجة وفي محرم وصفر وشهر ربيع الأول فقال *ابن عباس* :" أنه أنزل في شهر رمضان في ليلة القدر جملة واحدة ثم أنزل على مواقع ، النجوم رسلا في الشهور والأيام " ، وهناك حديثان أخرجهما *الحاكم* و*البيهقي* صحيحة كما نقل ذلك *السيوطي* وهي موقوفة على *ابن عباس* ولها حكم المرفوع.

3- **التنزل الثالث:**

التنزل الثالث وهو المرحلة الأخيرة التي شع منها النور على العالم وكان هذا النزول بواسطة جبريل عليه السلام على قلب النبي محمدﷺ ، قال الله تعالى **﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾**[1].

---

(1) سورة الشعراء الآية(193،194،195)

هذه هي تنزلات القرآن الكريم أدرجناها على ظاهرها ، وهو ما إتفقت عليه جميع كتب علوم القرآن مع بعض التفاوت من محاولة التفصيل ، أو إيجاد الحكمة من كل تنزل وهو أمر له قيمته العلمية ولكن لا يعني بحثنا هذا رأسا من أجل ذلك نركض سراعاً كي نقترب من صلب موضوعنا ، إذ هناك آيات قرآنية تجعلنا نطمئن إلى ضابطين أساسين نستشفهما من قوله تعالى ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا إئتِ بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتّبع إلا ما يوحى إليّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾[1].

فالضابط الأول هو أن القرآن كله توقيفي من الله تعالى نزولا وترتيبا ، والضابط الثاني أن لكل آية في كتاب الله موضع لا تتقدم أو تتأخر عنه بدليل (ما يكون لي أن أبدله) من الآية السابقة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) سورة يونس الآية(15)

د- الحكمة من نـــزول القـــرآن منجمـــا:

روى أن الكفار من يهود ومشركين عـابوا علـى النبـي ﷺ نـزول القرآن مفرقـا واقترحوا عليه أن ينزل جملة ، فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين ﴿وقال الذيـن كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا﴾[1].

وهذا يدل على أمور مهمة ومهمة جدا منها: أن الكتـب السماوية من قبل نزلت جملة واحدة ، وأن تنجيم القرآن الكريم كما دلت الآيـة فيـه تثبيت لفؤاد النبـي ﷺ ولسائل أن يسـأل وإذا أنـزل القرآن جملـة واحدة ألا يثبت فؤاده !؟ فنجيب بكل بساطة بهذا المثال إنك إن أعطيت إبنك رطلا من الحلوة فإن فرحتـه تنتهي بتخمتـه أما إن فرقتها عليه فإنه يبقى إلى جوارك يحاذيك ويستأنس بك ويبقى حوانيك يطلـب المزيد.

ومنها النزول حسب المناسبات والأحداث ممـا يجعل الرسـول ﷺ فـي منـأى عن شبهة تأليفه كما إتهمـوه بذلـك ، ومنهـا التمهيد لكمـال تخليهـم عـن عقـائدهم الباطلـة وعباداتهم الفاسدة وذلك بأن يُراضُوا على هذا التخلي شيئا فشيئا ثـم تحليهـم بـالعقيدة الحقة ، قال الله تعالى في ذلك ﴿وقرآن فرقناه لتقرأه على الناس على مكث﴾[2] ، بإعتبار أن التنوين للتعظيم ، ثم أن هذه الحكم الظاهرة والتي توسع فيها الدارسون لا تقل شأنا عن الحكمة الكبرى وهي كون هذا القرآن له مصـدر إلهـي وأنـه كـلام الله وحده وبيان ذالك كله أنك -ولا ريب- تقرأ القرآن كله من أولـه إلـى آخـره ، فـإذا هـو محكم السرد دقيق السبك آخذ بعضه بأعناق بعض ، في سوره وجمله.

---

(1) سورة الفرقان الآية(32)
(2) سورة الإسراء الآية(106)

وفي هذا السياق يقول إمام البلاغة عبد *القاهر الجرجاني* عن وقع القرآن على العرب : ... وأعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه وخصائص صادفوها في سياق لفظه ... ولم يجدوا كلمة ينبوا بها مكانها ، أو لفظة ينكرها شأنها بل وجدوا إتساقا بهر العقول وأعجز الجمهور ، ونظاما وإلتئما وإتفاقا وأحكاما لم تدع في نفس بليغ منهم موضع طمع حتى خرست الألسن أن تدّعي أو تقول "[1] .

على الرغم من ذلك كله فقد نزل القرآن مفرقاً خلال عشرين سنة فكيف إتسق له هذا التأليف المعجز وكيف إستقام له هذا التناسق المدهش وقد تنزل آحادا مفرقة تفرق الوقائع والحوادث .

وعلى حد تعبير صاحب البرهان :" إن الإنفصال الزماني وذلك الإختلاف الملحوظ بين هاتيك الدواعي يستلزمان في مجرى العادة التفكك والإنحلال ، ولا يدعان مجالاً للإرتباط والإتصال بين نجوم هذا الكلام "[2]

ولاحظ فوق ما أسلفناه أن رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه آية قال : " ضعوها في مكان كذا من سورة كذا " وهو بشر لا يدري ما ستجيئ به الأيام إنه ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾[3].

..... حكيم ..... وقد تطرقنا إلى حكمته .

..... خبير ..... لأنه يعلم ما ستجيئ به الأيام .... إنه الله رب العالمين.

---

(1) دلائل الإعجاز –عبد القاهر الجرجاني– ص259

(2) البرهان في علوم القرآن –الزركشي– ص61

(3) سورة هود الآية(1)

* سبب النزول القرآني والمناسبة:

تـوطئـــة :

قبل التعريف بسبب النزول جدير بنا أن ننبه أن معظم القرآن الكريم نـزل إبتـداءا غير مرتبط بسبب أو حادثة إنما هو لمحظ الهداية إلى الحـق ، أمـا الآيـات التـي لهـا سبب نزول فهي قليلة ، بل وتشترك في أحداث كثيرة ومتشـابهة وقلمـا تحصـر فـي حـادث معيـن ، وحتـى الروايـات فـي هـذا المقـام لا ترقـى فـي عمومهـا إلـى درجـة المرفوع[1] . فسبب النزول كما يُعرفهُ *الزرقاني* " هو مـا نزلـت آيـة أو آيـات متحدثـة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه ..."[2].

وقد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال : نزلت هـذه الآيـة فـي كذا يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب في النزول[3]

والكلام في هذا الباب يطول وقد إنتدب له جماعة أفردوه بالتأليف منهم *علـي بـن المدينـي شيخ البخاري* ، ومنهم *الواحـدي والجعبـري وابـن حجـر* ومنهم *السـيوطي* الذي وضع فيه كتاباً حافلاً محرراً سماه (لباب النقول في أسباب النزول) وهـذا لمـن أراد التوسع لأن موضوع البحث يسـتدعي الإشـارة إلـي سبب الـنزول لأنـه يشـكل طرفاً للإستئناس به وكفى.

---

(1) يراجع مناهل العرفان ج1 ، ص107
(2) البرهان في علوم القرآن ج1 ، ص31 ، ط2
(3) يراجع الإتقان ج1 ، ص89

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من أجل ذلك ، الذي يهمنا أن القرآن نسق واحد رغم تقلب الأحداث والمواقع فإنه نزل نجوما منثورة لكنها منثورة كنجوم السماء ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾[1] ورغم تفرقها في النزول فإنها كانت حجارة من سجيل ﴿وجعلناها رجوماً للشياطين﴾[2] على الذين أنكروا الوحي وبدلوا نعمة الله كفرا.

سبق تعريف سبب النزول ، أما المناسبة كما بينا معانيها اللغوية والإصطلاحية سابقا ، فإن لها معان أخرى عند المفسرين ككونها العلاقة التي تربط بين موضوع وآخر يليه في سورة واحدة ومنها المناسبات الظاهرة ومنها الخفية ، فمثلا الآيات الثمانية الأولى من سورة الحجرات تفصل الآداب الواجبة في حق النبي ﷺ ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ [3] ثم ينتقل السياق إلى موضوع آخر ﴿وإن طائفتان من المؤمنين إقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾[4] ، والمناسبة هنا ظاهرة فهي لفتة إجتماعية ، أو لا يعني التأدب مع الرسول ﷺ كافياً إذا كانت عصا المسلمين منشقة وصفوفهم مبعثرة بل ينبغي توقير القائد والحفاظ على الصف كأنه بنيان مرصوص كما أكدت ذلك سورة الصف . لكن ما علاقة المناسبة هذه بسبب النزول ؟ .

إن سبب النزول كما ذكرنا له سبب لكن وضعهُ في السورة يكون مناسبا تماما للمقام الذي وضع فيه فهو يشكل طرفا من السورة تعد ناقصة بدونه ويكون مبتورا دونها ، وسبب نزول الآيات اللاحقة (وإن طائفتان) وهي رواية مشهورة رواها *البخاري* ورواه *مسلم* عن *محمد بن عبد الأعلى* كلاهما عن معمر.

---

(1)،(2) سورة الملك الآية(5)
(3) سورة الحجرات الآية(4)
(4) سورة الحجرات الآية(9)

يقول *أنس* :" قلت يانبي الله لو أتيت *عبد الله بن أبي*(*) فانطلق إليه النبي ﷺ فركب حمارا وإنطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة فلما أقام النبي ﷺ قال: إليك عني فوالله لقد آذاني نتن حمارك ، فقال رجل من الأنصار لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحا منك فغضب لعبد الله رجل من قومه وغضب لكل منهم أصحابه وكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال فبلغنا أنه أنزلت فيهم وإن طائفتان من المؤمنين إقتتلوا فأصلحوا بينهما[1].

فلا ريب أن العلاقة هنا ظاهرة بين المناسبة وسبب النزول كما أثبتنا علاقة سبب النزول بموضوع السورة ، من أجل ذلك أمسى حتميا تسخير هذه المعطيات من مناسبة وسبب نزول وسياق وأسلوب لإيجاد نظرية متكاملة شعارها التناسب في القرآن الكريم تضم هذه المعاني كلها بما في ذلك الوحدة الموضوعية التي سيشرع الباحث في تفصيلها وتأكيدها بإذن الله تعالى في الفصل الثاني.

والغرض من هذا البحث المختصر -والذي هو غني عن التعريف إذ هو موضوع تضمه جميع المصنفات في هذا الشأن- هو إظهار هذه العلاقة الخفية بين المناسبة والسياق وسبب النزول ، فهي تشكل جزءا مهما من البحث.

(*) عبد الله بن أبي بن سلول ، كان رأس المنافقين بالمدينة

(1) أسباب النزول -أحمد الواحدي النيسبوري- دار المعرفة ص291 ، رواه البخاري ومسلم

المبحث الثاني

* المناسبة في تفاسير المتقدمين والمتأخرين:

ذكر *السيوطي* في الإتقان أنه أفرد بالتصنيف *أبوجعفر ابن الزبير* شيخ الشيخ *أبي حيان* كتاباً في مناسبات الآي هو (البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن) لكني لم أعثر عليه.

ومعرفة المناسبة بين الآيات في القرآن الكريم نجزم بأنها عماد معرفة كتاب الله تعالى إيماناً منا أن السورة القرآنية الواحدة ، فضلاً عن القرآن كله جسم واحد تسري فيه روح واحدة عرفها من عرفها وجهلها من جهلها ونسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى معرفتها. قال صاحب البرهان : " وأعلم أن المناسبة علم شريف تحزز به العقول وعرف به قدر القائل فيما يقول "[1]. وفي هذا التفاوت يقول صاحب الموافقات *الإمام الشاطبي* : " إن الله تعالى جعل أهل الشريعة على مراتب إذ هم ليسوا على رأي واحد بل رفع بعضهم فوق بعض كما أنهم في الدنيا كذلك من له مزيد في الشريعة كمن لا مزيد له لكن الجميع جار على قدر مشترك[2].

من أجل ذلك قل إعتناء المفسرين قديماً وحديثاً بهذا الجانب لدقته وتعدد مجاريه لذلك فإن إعتناء المتقدمين بذلك يكاد يكون دعوة إليها دون المُضي فيها إلا بعض المؤلفات التي لم نضع عليها أيدينا و منها كتاب *لبرهان الدين البقاعي* الذي أطلق عليه (الدرر في نظم الآيات والسور) ، يقول سعيد حوى رحمه الله أنه يطبع تفسيره الآن وكان يلوم علماء بغداد لإهمالهم الكلام في هذا الشأن "[3].

---

(1) البرهان ص35

(2) من علوم القرآن –فؤاد علي رضا– بيروت ، ص136 ، ط7 (نقلا عن الموافقات)

(3) الأساس في التفسير –سعيد حوى– دار السلام للطبع ط1 ، ص24

ومنهم الإمام *فخر الدين الرازي* يقول حول سورة البقرة : " ... ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها على أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه ، فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته ولعل الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك ، إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار "[1].

وسنجد من أرباب البيان من يخصص لمسألة العلاقة البنائية والتعالق بين مكونات الخطاب القرآني-لفظية ومعنوية- مباحث عديدة مثل ما صنع الإمام *الجرجاني* في كتابه دلائل الإعجاز والذي إحتل لديه مصطلح التعالق الصدارة كشف عنها مصطلح النظم والذي وصفه بإستجلاء في ظاهرة الإعجاز القرآني.

ويقول الشيخ *ولي الدين الملوي* : " وقد وهم من قال : لا يطلب للآية الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفرقة وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا ، وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف كما أنزل إلى بيت العزة ، ومن المعجز البين أسلوبه و نظمه الباهر والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شئ كونها **مكملة** لما قبلها أو مستقلة ، ثم المستقلة ما وجه **مناسبتها** لما قبلها ؟ ففي ذلك علم جم ، وهكذا في السور يطلب وجه إتصالها بما قبلها وما سيقت له ..."[2] إ.هـ

كان هذا ما نقله صاحب البرهان نفسه لرفض شبهة أن هذا القرآن منجما غير منتظم ثم يقول : ".... فما أشبه كل مجموعة من القرآن بروضة يانعة ينتقل الإنسان بين أفيائها متمتعا بكل الثمرات أو مائدة حافلة بشتى الأطعمة يشبع الجائع حاجته بما فيها من جميع الألوان ..... وهنا **دقيقة** أحب لا تعزب عن علمك ، وهي :

---

(1) عن مقدمة تفسير الرازي

(2) نقل هذا الكلام صاحب المناهل ص80

أن هذا الروض الرباني اليانع (القرآن الكريم) يقوم بين جمله وآيه وسوره **تناسب** بارع و**إرتباط** محكم ، و**إئتلاف** بديع ، ينتهي إلى حد الإعجاز خصوصا إذا لاحظنا نزوله منجما على السنين والشهور والأيام ....."[1].

ولاريب أن هذه النصوص القديمة والحديثة هي المادة الأولية التي إن صيغت صياغة علمية حفزت لإيجاد نظرية كاملة حول التناسب في القرآن الكريم ، وهذه النصوص هي التي صاغت كذلك هذه الأقلام المشهورة في السماء تنادي بالإهتمام بهذا الجانب في العصر الحديث ، يقول الإمام سعيد حوى رحمه الله : " ..... تفتحت لدي من آفاق الفهم معاني كثيرة بخصوص السياق العام للقرآن الكريم والسياق الخاص داخل السورة الواحدة وكلما سرت في عرض القرآن الكريم تبين لدي من الأدلة سلامة سيري الكثير الكثير ....."[2] .

و يقول رحمه الله في مقام آخر : "..... إن القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره فإذا هو محكم السرد دقيق السبك ، متين الأسلوب قوي الإتصال آخذا بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله يجري نم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنه **سبيكه واحدة** ..... نسقت جمله وآياته و جاء آخره مساوقا لأوله وبدا أوله مواتيا لآخره ..... وهنا نتساءل كيف إتسق للقرآن هذا التأليف المعجز .... على حين أنه لم ينزل جملة واحدة و الجواب ..... **﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً﴾**" [3].

---

(1) مناهل العرفان ص86
(2) الأساس في التفسير ج1 ، ص23
(3) الأساس في التفسير ج1 ، ص25

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثم بعد ذلك جاءت تلك القفزة النوعية في إثبات الشمولية في القرآن الكريم بإعتناء *سيد قطب* –رحمه الله– في كتبه الثلاثة ، أولها التصوير الفني في القرآن الكريم ثم مشاهد يوم القيامة في القرآن ثم كتابه الجامع في ظلال القرآن الكريم ، يقول –رحمه الله– : "..... وقد إنتهت فيه إلى القضية التي بسطتها في تلك الفقرات "[1].

والقضية عند *سيد قطب* هي أن التصوير هو الأداة المفضلة في القرآن الكريم ولا تصوير إلا بتكامل المواضيع في السور القرآنية.

ولقد إنبرى لمثل هذه المهمة أيضا صنوه الأستاذ المرحوم *مصطفى صادق الرافعي*[*] ، إذ ألف في إعجاز القرآن كتابا هو إعجاز القرآن ، سنستعين به في الجانب الصوتي في المباحث القادمة ، ثم تنطلق تلك الصرخة من هناك .... من قلب فرنسا .... (عم يتساؤلون عن النبأ العظيم) ... إنها صرخة (النبأ العظيم عن القرآن الكريم) للأستاذ الفاضل محمد عبد *الله دراز* مبعوث الأزهر إلى فرنسا فكان نعم المبعوث ونعم السفير ونموذجا للإقتداء ..... وكان كتابه بحق وأنت تقرأه من أوله إلى آخره شريط سمعي بصري فيه الصراخ وفيه الأناة ، وفيه الحث على السير قدما وفيه الرفق والحلم والإناس فكان بحق مشروعا ضخما بحاجة اليوم إلى مقاولة صادقة وقوية ثم خبيرة[2] .

---

(1) مشاهد القيامة في القرآن ، دار الشروق ط7 ، ص8

(*) كتابه إعجاز القرآن والبلاغة النبوية قال عنه محمد رشيد رضا : " كأنه تنزيل من التنزيل أوقبس من النور الحكيم".

(2) ونقصد بهذا الكلام إحداث مجمعات فكرية متخصصة في جوانب تفسيرية معينة ، فقد بات من المؤكد أن مواضيع القرآن الكريم أكبر من أن يحيط بها متخصص واحد.

ولقد لفت إنتباهي الإهتمام الكبير الذي أثار به المرحوم *دراز* مسألة التناسب في كتابه (النبأ العظيم) فلم يفتأ يسلم بظاهرة التناسب ويقرها ويحيل على شواهد نصية لمس فيها صفة التناسب العضوية جلية في سور القرآن الكريم.

وبكل تؤادة ورفق كما سلف ان ذكرنا ، ظهر الإمام *سعيد حوى* -رحمه الله- لطرق موضوع الوحدة الداخلية بين السورة والسورة ... في كتابه (الأساس في التفسير) ، إلا أن قلة المراجع في غياهب السجون منعته أن يخرجه كما كان يأمل ويتمنى ويبدو أن الظروف التي أنجب فيها كتابه -ونقص المراجع- قد جعل عمله يتسم بالخطابية أكثر من الإحالة على المصادر الرئيسة.

وعلى الرغم من إعتناء بعض المفسرين بإيجاد هذه المناسبة ولو على سبيل المحاولة ، فإن هناك منهم من فتح باب لا ليحث على هذا العمل ويحض عليه بل ليقول أن هذا غير ممكن -أصغ معي- يقول الشيخ *عز الدين بن عبد السلام*: "المناسبة علم حسن ولكن يشترط في حسن إرتباط الكلام أن يقع في أمر متحد ، مرتبط أوله بآخره فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه إرتباط أحدهما بالآخر و قال : " ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا برباط ركيك يصان عنه حسن الحديث فضلا عن أحسنه ، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ..."[1] وقد رأى قريبا منه ذلك الأستاذ *محمد فريد وجدي* -رحمه الله-.

وقد كفانا الرد على ذلك صاحب البرهان بقوله " ... وقال بعض مشايخنا المحققين: قد وهم من قال لا يطلب للآية الكريمة مناسبة وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا وعلى حسب الحكمة ترتيبا ...﴿كتاباً أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ "[2].

---

(1)،(2) البرهان ص37

وفي ذات الإطار وعلى مدى السلف الصالح قدامى ومحدثين ها نحن نستكمل الطريق بإسمام نرجوا أن يكون موفقاً في إبراز تناسب الخطاب القرآني وثبات عضويته.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبـــحث الأول

التناسب العام:

دراسة أسلوبية:

البيان والمعاني والبديع ، هي المحيط الذي لا يعدوه كاتب أو أديب ، بكل ما فيه من وسائل المقدرة والبناء وأي قطعة فنية تشكل بناء ، لبناته كلمات فصيحة ولحمته صيغ البلاغة وشكله المميز هو الأسلوب أو الطريقة التي صيغ بها ، وبعد هذا يحكم على البناء بالجمال أو بالرداءة بالكمال أو بالنقص.

والذوق السليم هو العمدة في معرفة حسن الكلام ، وتمييز ما فيه من وجوه البشاعة ومظاهر الإستكراه. والألفاظ أصوات ، وشتان بين صوت البلبل وصوت البوم ، ألا ترى أن كلمتي (المزنة) و(الديمة) للسحابة الممطرة كلتاهما سهلة عذبة يسكن إليها السمع بخلاف كلمة (البعاق) التي في معناها ، فإنها قبيحة تصك الآذان وكأنما يقولها الذي رأى مطرا وهو لا يريده.

ويشترط في فصاحة التركيب أن يسلم من ضعف التأليف كخروج الكلام عن قواعد اللغة المطردة كرجوع الضمير على متأخر لفظا ورتبة في قول *حسان* بن ثابت –رضي الله عنه– :

ولو أن مجدا أخلد الدهر واحدا من الناس أبقى مجده الدهرَ مطعما[1]

فإن الضمير في (مجده) راجع إلى (مطعما) وهو متأخر في اللفظ كما ترى ، وفي الرتبة لأنه مفعول به.

---

(1) هو مطعم بن عدي أحد رؤساء المشركين وكان يذب عن النبي –صلى الله عليه وسلم–

كما يشترط أن يسلم التركيب من تنافر الكلمات وقد اشتهر قول الشاعر في ذلك :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

وهو بيت لا يتهيأ لأحد أن ينشده ثلاث مرات متواليات دون أن يتتعتع.

هذا إضافة إلى سلامة التركيب من التعقيد اللفظي والمعنوي على السواء ، فيكون الكلام واضحا يتهيأ للفهم من أوله إلا إذا دعت إلى ذلك الحاجة ، إذ ليس الكلام كله يفهم من الوهلة الأولى ، بل هناك ما يستدعي إعمال الفكر.

والبلاغة على تعدد تعاريفها فهي تأدية المعنى الجليل بعبارة صحيحة فصيحة لها في النفس أثر خلاب مع مراعاة المقام وأهل المقال الذين يوجه إليهم الخطاب[1].

فالبلاغة هي أداء لمعنى في النفس مصحوبا بالتأثير والدقة وسرعة الإبلاغ ، إذ ليس هناك من فرق بين البليغ والرسام ، إلا أن هذا يتناول المسموع من الكلام وذاك يشاكل بين المرئي من الألوان والأشكال ، أما في غير ذلك فهما سواء ، فالفنان أو الرسام قبل أن يهم بوضع الصورة فهو يفكر في إختيار الألوان وتدرج المناظر وملاءمة المساحة وزاوية النظر ، ومتى يكون الظل أو شبه الظل ، ومتى لا يكون وأين يكون إذا كان ، بحيث إذا جاءت صورته تخلب الأبصار وتثير الوجدان ، وقل إن شئت نفس الكلام بالنسبة للبليغ والشاعر.

غير أن البلاغة لفظ ومعنى وتأليف للألفاظ يمنحها قوة وتأثيرا وحسنا ، والتركيب اللفظي والمعنوي هو بدرجة تدرج الألوان عند الرسام ، فهناك من الألوان التي يمجها الذوق ، فالأسود مثلا من الألوان الداكنة التي تضفي على النفس قطعة من لونها ، غير أن الرسام إذا اضفى على نخلة شاطئية لونا داكنا ولو كان أسودا ، فإن

---

(1) تراجع في ذلك كتب البلاغة منها اسرار البلاغة –عبد القادر الجرجاني–

المشهد يتحول إلى صمت وأنس وأصوات ليلية تتيح للنفس السباحة في عالم آخر والسياحة فيه ، وإن كانت الألوان داكنة وفي نفس المصب أسمع قوله تعالى ﴿والليل إذا عسعس﴾[1].

وهناك ألفاظ لا تحسن موقعا إلا في حالات نادرة من ذلك أيضا لفظة (أيضا) ، فقد كره الأدباء هذه الكلمة وعدوها من ساقط الكلام فلم تجر بها أقلامهم في شعر أو نثر حتى ظهر من بينهم من قال :

رب ورقاء هتوف في الضحا ذات شجو صدحت في فنن
ذكرت إلفا ودهرا سالفا فبكت حزنا فهاجت حزني
فبكاني ربما أرقتها ولقد أشكو فما تفهمني
غير أني بالجوى أعرفها وهي **أيضا** بالجوى تعرفني

فوضع الشاعر (أيضا) هذه اللفظة المنبوذة في مكان لا يتطلب سواها ولا يتقبل غيرها ، وكان لها من الروعة والحسن في نفس الأديب ما يعجز عنها البيان[2] ، ونفس الكلام ينطبق على كلام فيه حسن في نفسه جاء في غير مكانه ، والقرآن الكريم هو الوحيد الذي يأتي فيه الحسن بكل أنواعه من حسن لفظ وروعة مكانه ، وجمال معنى وحسن موضعه ، وهذا ما نتطرق إليه -بإذن الله تعالى- بإسهاب في المبحث الثاني من الفصل الثاني. ويحسن بنا هنا ، ونحن نطرق الوحدة الموضوعية الكبرى ، أن نشير إلى الأسلوب وأنواعه وحاجة المخاطب والمخاطب إلى تنوعه.

---

(1) سورة التكوير الآية(17)
(2) البلاغة الواضحة دار المعارف مصر -علي الجارم ومصطفى أمين- ط17 ص9 بتصرف.

- تنوع الأساليب في القرآن الكريم :

مما هو جدير بالملاحظة أن الدارسين لقضايا الإعجاز في القرآن الكريم ، لا تتجاوز أعمالهم -في معظمهم- آيات محدودة أو سور منها معدودة ، درست حتى درست وقد يشارك المتأخر السابق الردئ ، وقد يوافقه على مستكره أو غث ، حتى مل القراء والدارسون الطعم المتكرر لكلام واحد ، اكتشفه واحد وحام حوله الباقون ، فأصبنا بتخمة الإسراف من جهة ومخمصة التقتير من غيره الجديد من جهة أخرى ، ونوافذ القرآن الكريم مفتوحة كما يقول عبد *الله الدراز* -رحمه الله-.

فالقارئ محتاج إلى فائدة عقلية ومتعة وجدانية ، ولا فائدة في متكرر إلا تذكرة ، ولا متعة فيه إلا ناقصة عن حالة جدتها ، إن القرآن كل القرآن يمتاز بالجلال والجمال في بعضه ، وفي بعضه مع بعضه وفي كله ، فهو كالدرر ، إن نظم سمي عقدا ، وإن نثر سمي لؤلؤا منثورا ، أو كفص من قطعة ماس تغنيك زاوية نظر واحدة عن كله ، بل كلما حولت زاوية نظرك تهيأت لك رؤية جديدة وأشكال أخرى وألوان أزهى.

وأسلوب القرآن الكريم أوسع مجالا ودقة وتنوعا وتفاوتا ، إنها أساليب تستهويك سلاستها تروق منك المسمع وتثير منك المدمع ، إنها أساليب القرآن التي لم تتحول عبر العصور ، فما اعتراها بلى ولا مجها سمع.

هل ترى كان هذا في الكتب -المقدسة- الأخرى ، تعالى معي إلى التوراة أو أسفار موسى التي ينسبها اليهود إلى الله ، لقد ظهر للمحدثين من الباحثين أنها قد ألفت في عصور لاحقة لعصر موسى -عليه السلام- وأن معظم سفري التكوين

والخروج قد ألف حوالي القرن السابع قبل الميلاد ، وأن سفر التثنية ألف في أواخر القرن السابع للميلاد ، وهي تختلف إختلافا كليا عن التوراة التي يذكر القرآن أنها كتاب سماوي ، قال الله تعالى في شأنهم ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه﴾(*)(1).

ثم إذهب معي إلى أحد أسفار الفيدا التي يطلق عليها البرهميون إسم (VEDAS) ويعتقدون أنه موحى بها من الإلاه براهما نفسه(2) وهم يطلقون عليه في اللغة السنسكريتية القديمة المعرفة والعلم ، لكنه العلم الفارغ كما أطلقوا عليه (VIDES).

ثم اذهب إلى أحد أسفار الديانة الزرادشتية (الأبوستاق) وهي كلمة معربة عن (الأفستا) (AVESTA) ومعناها الأصل أو السند وفي زعمهم أنه موحي بها من الإلاه (أهودا مزدا)(MAZDA) (2).

ثم انظر في التاريخ وماذا بقي منها -ويا ليته ما بقي- وماذا تحمل من تراهات وخزعبلات هي أشبه بهذه الألفاظ التي لا أعرف لها أصلا في اللغة العربية نفسها.

فما الذي تميز به القرآن الكريم وأقر به أعداؤه ومنكروه ، فضلا عن لفته وإعجازه ؟

يقول *الخطابي* -رحمه الله- : " أعلم أن القرآن الكريم إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الكلام في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني"(3).

وقد يسأل سائل ، أنا لست عربي ولا أعرف للحس العربي معنى ، ولا البلاغة التي أنتم بها هانمون وعليها تتكئون ، فهل لك أن تعمد إلى أيسر سبيل تصف فيه روعة القرآن ودقة الإتقان فيه ؟

(*) سورة النساء الآية(47)

(1) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة -د.علي عبد الواحد وافي- دار نهضة مصر ص16 (بتصرف).

(2) نفس المصدر السابق ص152

(3) بيان إعجاز القرآن الكريم - - ص28،27

يقول *أبو زيد الدبوسي* وهو أصولي حنفي : " المناسب هو ما لو عرض على العقول تلقته بالقبول ، فهل هناك في القرآن أيها السائل ما لم تتقبله العقول ؟ وهل فيه ما يخالف أمرا طبيعيا أو بديهة عقلية ؟ لا والله.

وفي القرآن الكريم دقة في أسلوبه ، إن عمل الفكر فيها وجد إتساقا وانتظاما وتناسبا لا يتأتى لغيره ، وربما تسرع بعض المتفيقهين فرماه بعدم الإتساق أو الجمع دون مراعاة التناسب كما عقدنا في المبحث السابق ، يقول الله تعالى **﴿وعباد الرحمان الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾** ، فقد يقول قائل ما العلاقة بين المشي على الأرض وخطاب الناس ؟ وما الوجه الجامع بينهما ؟

يقول *ابن القيم الجوزية* -رحمه الله- : " لما كانت العثرة عثرتين عثرة الرجل وعثرة اللسان جاءت إحداهما قرينةالأخرى ، فوصفهم الله بالإستقامة في لفظاتهم وخطواتهم "[1].

إن المقياس الحقيقي في كل ذلك كما يقول *عبد الكريم الخطيب* : " إن الدليل يحتاج إلى عقل يعقل الكلام وقلب يعيه ووجدان يذوقه ويفرق بين طعومه "[2]

إنه الجمال والجلال والروعة والسطوة ، إنه كما يقول *الباقلاني* -رحمه الله- : " محاسن متوالية وبدائع تترى " ، ويقول *ابن عطية* -رحمه الله- : " لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب لقطة أحسن منها لم توجد ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير".

---

(1) الجواب الكافي -ابن قيم الجوزية- تحقيق بشير محمد عيون - مكتبة دار البيان . ص 82 .
(2) الإعجاز في دراسات السابقين ص255

ولا نزعم أن هناك من يستطيع مصادرة أساليب القرآن في تصنيفات محدودة ومعدودة إذ هي من التنوع والإعجازية ، بحيث لا يمكن لأي منهج إجرائي أن يقطع بأنواعها وبأصنافها ومع ذلك ، واصطناعا لإجرائية رأينا أنها تلائم منهجنا فقد افترضنا أن أسلوبية القرآن تتوزعها مستويات فنية ثلاثة :

- الأسلوب العلمي (التقريري)
- الأسلوب الخطابي (الأدائي)
- الأسلوب الأدبي (التصويري)

وهي في مجملها قد أعجزت البيانيين واللغويين والمشرعين في حسن تأتيتها ودقة معانيها وجمال مواقعها.

فإذا كان أسلوب البشر لا بد للبليغ فيه من التفكير في المعاني التي تجيش بخاطره وأن تكون صادقة ذات قوة وقيمة يظهر فيها أثر الإبتكار وسلامة النظر ودقة الذوق . فإن كلام الله تعالى يحمل كل ذلك وزيادة ، ﴿لأنه أعلم بما في نفوسهم﴾[1]

يقول صاحب إعجاز القرآن : " ...نعتقد أكثر ما جاء في القرآن الكريم كان جديدا في اللغة لم يوضع من قبله ذلك الوضع ولم يجر في إستعمال العرب كما أجراه ، فهو يصب اللغة صبا في أوضاعه لأهلها لا في أوضاع أهلها "[2].

---

(1) سورة البقرة الآية(282)
(2) وحي القلم ج3 ص516

- **الأسلوب العلمي التقريري في القرآن الكريم**

إذا كان الأسلوب العلمي هو أهدأ الأساليب وأكثرها إحتياجا إلى المنطق السليم والفكر المستقيم ، لأنه يخاطب العقل ويشرح الحقائق وقد يشمل التقنين والتشريع ، فإنا نقصد بالأسلوب التقريري في القرآن تلك المواقع التي شرعت أو أبانت أحكاما أو وضعت قواعد وأسس في مجال العبادة أو الأخلاق أو السلوك العام ، والتي جاء الخطاب القرآني الإعجازي فيها على نمط جمالي مباشر إكتنز تركيبه فنية لم تغيب المعنى ولم تغمره في حالة من التحسين اللفظي الذي يغطي على المعنى ويغيبه ، ولكن توازن في الموقف العلمي الشرط التوصيلي التبليغي الإعجازي مع وضوح القصد القرآني تشريعا وتقنينا.

فلنضرب على ذلك أمثلة ، حذا كل مثال حذوه الخاص في هذا التقنين ، فاصغ معي حيث الأسلوب العلمي يزين بزينة الأسلوب البياني ، ويصاغ صياغة خطابية ، يقول سيد *قطب* –رحمه الله– حول آية القرض ما يلي: "...أما هنا فالحديث عن القرض الحسن...وإن الإنسان ليقف في عجب وفي إعجاب ، أما التعبير التشريعي في القرآن ، حيث تتجلى الدقة العجيبة في الصياغة القانونية حتى ما يبدل لفظ بلفظ ولا تقدم فقرة عن موضعها أو تأخر ، وحيث لا تطغى هذه الدقة المطلقة في الصياغة القانونية على جمال التعبير وطلاوته ، وحيث يربط التشريع بالوجدان الديني ربطا لطيف المدخل عميق الإيحاء قوي التأثير دون الإخلال بترابط النص من ناحية الدلالة القانونية...كل ذلك...لأن الغرض يحرفه لفظ واحد ، ولا ينوب فيه لفظ عن لفظ ولولا الإعجاز ما حقق الدقة التشريعية المطلقة ، والجمال الفني المطلق على هذا النحو الفريد "[1].

وهذه نكتة من نكت التناسب الذي نسعى إلى إثباته وبيانه بإذن الله تعالى.

---

(1) في ظلال القرآن –سيد قطب– ، دار الشروق ط15 ص334

هناك نموذج ثان يقول الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾[1].

فهذه الآية تأمر بالإنفاق ، وهو قرض حسن مع الله ، والأمر بالإنفاق يسلك مناح عدة ويأتي على طرق مختلفة ، كما أن للإنفاق ضوابط تقننه وتحدده ، وفي هذه الآية كانت الضوابط ترهيبية بعدما كان الطلب ترغيبا ، يقول الدكتور *سليمان عشراتي* حول هذه الآيات : " الصيغة التحذيرية أعلاه تواترت على صورة بنائية تأكيدية وهذا بترادف النفي مرات ثلاث (لابيع ، ولاخلة ، ولا شفاعة) ، فالخطاب يثبت السياق بالنفي المتلاحق بتجريد الموقف (المحذر منه) من سائر أوجه السماحة أو الشفاعة التي قد يتوهم المعني (القابض) أنه سيفتدي بها من موقف الحساب الغيبي ، فالمرجعية التي تصدر عنها أدبية التحذير هنا ، تتقاطع من منطق الحياة القائم على الوسائط والتوسلات ، وهو منطق لا يصمد أمام صرامة التقويم الإلهي التي جاء الخطاب التشريعي يحذر منها "[2].

---

(1) سورة البقرة الآية(254)

(2) أدبية الخطاب القرآني ص324 الباب الثالث

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- الأسلوب الأدبي:

والأسلوب الأدبي عند أهل البيان هو أن الجمال أبرز صفاته وأظهر مميزاته ، ومنشأ ذلك الخيال الرائع ومحاولة إلباس ما كان معنويا ثوب المحسوس ، فالحمى على سبيل المثال لها تعريف علمي واحد دقيق ، غير أن لها عند الأديب تعاريف عدة ، *فالمتنبي* مثلا يراها طارقا ثقيلا ، فيقول الأبيات المشهورة :

وزائرتي كأن بها حياءا ... فليس تزورني إلا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا ... فعافتها وباتت في عظامي
أراقب وقتها من غير شوق ... مراقبة المستهام(*)

كما أن الغيوم لا يراها *ابن الخياط*[1] ، كما يراها العالم بخارا يحول إلى ماء ولكنه يراها :

كأن الغيوم جيوش تسوم ... من العدل في كل أرض صلاحا
إذا فاضل فيها المخل(**) الغمام ... بصوب الرهام أجاد الكفاحا
بقرطس بالطل فيه السهام ... ويشرع بالوابل فيه الرماحا
ترى ألسن النور تثني عليه ... فتعجب منهن خراسا فصاحا

ولن كنا نعجب من حسن هذا التصوير وطلاقة الخيال فيه ، فإن عجبنا يزول ونحن نتحول إلى كتاب الله تعالى في قوله ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾[3].

(*) المستهام : الخائف ، الأبيات من البلاغة الواضحة ص13
(2) شاعر من أهل دمشق ، طاف بالبلاد يمدح الناس وعظمت شهرته وله ديوان شعر مشهورا (ت514هـ).
(**) الحرب ، الرهام : المطر الخفيف
(3) سورة الحج الأية(5)

فالهمود درجة بين الحياة والموت ، والإهتزاز يعتري النبتة كما يعتري الإنسان ، والربو حركة عجيبة ،تؤذن بسريان الحياة المتأني ، وكل هذه الملاحظات سجلها القرآن الكريم قبل أن تلتقطها عدسات الملاحظين التي ترقب النبتة عدة أيام بل عدة شهور.

وانظر هذه السلاسة في التصوير والسلامة في الألفاظ وانقياد المعنى إلى الأذهان دونما تقعر ولا تعسر. وكأن الخطاب هنا عام يخاطب الفطرة في الإنسان ، وأمعن إلى كلمة (ترى) ، فهي تفرض عليك أن ترى وقد كنت لا محالة رايت وتتحداك كأنك لم ترى.

فكلنا رأى أرضا هامدة ، وكأنها عروس نائمة ترتدي ثوبا خشنا ، وإذا بالحياة تبعث فيها فتتململ وتتحرك ثم تتكشف عن كل جمال فيها وبهاء وسناء (من كل زوج بهيج) . إنه السهل من الأساليب ، لكنه الممتنع ، وسنتعرض إلى مثل هذه البيات في سياق الحديث عن محل التناسب من باقي أجزاء السورة.

- كان هذا نموذجا حول منظر طبيعي متكرر صيغ صياغة حتى كأنه حديث.

هناك نموذج أدبي تصويري آخر ، لقد كان رسول الله ﷺ في مكة ، ضيق صدره حزين النفس من المعارضة واستمرار العناد وتوالي الإيذاء لشخصه الكريم وللمسلمين ، مصداقا لقوله تعالى ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾[1] ، وقال كذلك ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾[2].

---

(1) سورة الحجر الآية(97)
(2) سورة الكهف الآية(3)

وصاحب هذه النفسية مشغول بنفسه لا يستطيع أن يتلقى تشريعا -كما ذكرنا سابقا- ولذلك نجد في هذه الايات المكية تسرية وترفيها عن الرسول ﷺ ، قال تعالى ﴿ن والقلم ومايسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجرا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم﴾[1] ، وقال ﴿إن أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الابتر﴾[2].

فقد جعل الله هذه الآيات القصيرات مستودعة معاني التسلية والصبر وسعة الأفق بألفاظ هادئة هادفة مصحوبة بتلك النغمية الإيقاعية المترددة بين اللطف والحنين (ن - يسطرون - بمجنون -عظيم) وبين قوة الموقف ووجوب الثقة في الله كما رسمتها إقاعية :

الكـــــــــــــــــــوثـــــــــــــر
انـــــــــــــــــــحـــــــــــــر
أبـــــــــــــــــــتـــــــــــــر

---

(1) سورة القلم الأيات(1،2،3)
(2) سورة الكوثر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- **الأسلوب الأدائي التصويري :**

أما الأسلوب الخطابي هذا ، ففيه تبرز قوة المعاني والألفاظ ، وقوة الحجة والبرهان ، والخطيب يعمل على ما في وسعه للوصول إلى قرارة النفوس ، ومن أبرز مميزاته إستعمال المترادفات وضرب الأمثال واختيار الكلمات الجزلة ذات الرنين وتعاقب ضروب التعبير ، فتكون مواطن الوقف فيه قوية ، وللعرب في ذلك الباع الطويل ، نقتصر فيما يلي على هذه القطعة الخطابية *لعلي بن أبي طالب* -كرم الله وجهه- لما أغار *سفيان بن عوف الأسدي* على الأنبار وقتل عامله عليها ، وهذا قوله : " ...فواعجبا من جد هؤلاء في باطلهم ، وفشلكم عن حقكم ، فقبحا لكم حين صرتم غرضا يرمى ، يغار عليكم ولا تغيرون وتغزون ولا تغزون ، ويعصى الله وترضون"[1]. وانظر كيف جعل -كرم الله وجهه- من هذه المطابقة ، بين فعل أعدائه وجبن أصحابه منفذا يسوق من خلاله هذه المعاني.

والأسلوب الخطابي الأدائي ، في القرآن الكريم ، فضلا عن قوة جرسه وحسن صياغته ،فإنه يفتح عينيك على مشاهد لا تعرفها من قبل حتى كأنك تراها ، فإذا وصف الجنة كأنك بها تجول ، أو وصف النار كأنك حولها تحوم أو وصف لك يوم الحشر كأني بك تحمل أكفانك مهطعا إلى الداعي ، يقول عز وجل **﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وإن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم﴾**[2].

---

(1) البلاغة الواضحة ص17

(2) سورة الواقعة الآيات(83....94)

يقول سيد قطب –رحمه الله– : " (ونحن أقرب إليه منكم) ...وأنتم تنظرون إلى المحتضر لا تستطيعون رد الحياة إليه وفراقه عزيز ، وهذا التصوير يلقي الروع والرهبة والخشوع " ، كما يقول حول هذه الآيات : " لكن التصوير هنا والتخييل يكاد يجعل هذه الحقيقة المعروفة جديدة مفاجئة مرهوبة ، (فلولا إن كنتم غير مدينين) ، إن كنتم طلقاء لا تدينكم قوة ، ترجعونها ... إن كنتم قادرين... وفي ومضة ينتقل من مشهد الإحتضار إلى مشهد البعث فيلخص الموقف الذي فصله ، وبعد أن ينتهي الإستعراض المجمل تكون النفس متهيئة الإيمان الوثيق (إن هذا هو حق اليقين فسبح باسم ربك العظيم) "[1].

وبصدد حديثنا عن تنوع الأساليب في القرآن الكريم ، فإن القرآن الكريم وإن كان في عامته قد نحت سوره منحى أسلوبيا تميزت به شخصيتها بحيث بات للسورة أسلوب أدائي معروف فإذا ما أخذنا سورة الإخلاص أو الكوثر أو النجم أو الرحمن مثلا ، فإننا سرعان ما نتبين نجرها الخطابي المميز ، ويتمثل عادة في بنية الخطاب وفي زمنه الذي نجده غالبا يربط بين الأحداث أو في منحاه التقريري ، المرتبط بترسيخ مثل التوحيد ويتمثل أيضا في الفنية والجرسية وفي المنحى المضموني للسورة ، على أن هناك من السور ما تتعدد مقاصدها لكن الوشاح الأسلوبي العام يظل يجليها بهوية جمالية واحدة وهذا نسق كان موجودا عند فحول الشعراء وسنعقد لكل منها نماذج.

---

(1) مشاهد القيامة في القرآن ، دار الشروق –سيد قطب ط7 ص126

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني

* السياق القرآني متحد النسق:

قد تتداخل الأساليب في الموضوع الواحد ، وقد ينفرد الموضوع الواحد بأسلوب معين ونمط معين وقد يتخلل الشعر أو السجع بعض المقاطع النثرية وكل ذلك مما يجعل هذا التباين في الألوان من ميزات القرآن الكريم الفذة.

قال الله تعالى ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر﴾[1] ، وقال ﴿والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها﴾[2] ، وقال كذلك ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان ما لها﴾[3].

فإن هذا لا ينسب إلى السجع ولا ينبغ أن يكون سجعا ، حتى وإن كان ينحو هذا المنحى ، فإن هذا من نادر مميزات السجع التي إن نحى منحاها كان بحق خليقا أن يكون أدبا راقيا ويشهد لهذا ما قاله فحول الشعراء أمثال زهير حيث تتكرر مقاطع عدة دون أن ينعتها أي ناقد بالسجع أو التكرار من ذلك قوله:

ومن لا يصانع في أمور كثيرة ... يضرس بأنياب ويوطئ بمنسم[4]

ومن يجعل المعروف من دون عرضه ... يفره ومن لايتق الشتم يشتم

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه يستغن عنه ويذمم

---

(1) سورة القدر الآيات(1،2،3)

(2) سورة الشمس الآيات(1...7)

(3) سورة الزلزلة الآيات(1،2،3)

(4) مختارات من الشعر الجاهلي -علي بن محمد- ديوان م.ج.ج ط2 ص17

وهكذا يواصل في حوالي عشر أبيات قوله (ومن ، ومن ، ومن...).

وهذه الرتابة في بعض السور لا تعني أن معظم القرآن الكريم التي تحذو حذوها فهو في جملته يتخذ اختلاف الأساليب في سوره كعقدة لقصة يجعل القارئ يتوق إلى حلها وفك إشكالها وكلما تغير الأسلوب يحس القارئ أنه إنتقل إلى موضوع آخر مع شعوره أن الموضوع الأول لم يتم فهو موضوع لبيان الموضوع الأول أو لشرحه أو للتدليل عليه

فلا يتأتى له إجمال المعنى إلا بكمال البيان ، ولا يكتمل البيان إلا بهذا التنوع وإلا سئم وتيرةالأسلوب الواحد وهذا سر كون الإنسان لا يسأم من تشرب الخطاب القرآني تلاوة وإلا إنقطع عن مواصلة قراءته كلما بادره بخلاف ما نرى ، يقول الدكتور *عشراتي سليمان*: " والسورة القرآنية واسطة تبليغية تكثفت تعبيرتيها على نحو طابق فيه محور التوصيل والفنية ، فأنتجا الصورة التي تنبع عن خطاب هويته الأدائية نفسها فنية تعبيرية تستوعب بأصالة التنويعات الخطابية على مختلف مناحيها ، وترقى بها فنيا ليظل الخطاب مطبوعا بمقومات الأدبية القرآنيةالفذة "[1].

وبناء على هذا فإن التنوع لم يكن اعتباطيا بل حسب الحالات والمواقف والمراجع الخطابية كما سيأتي.

والخطاب القرآني يختلف من سياق إلى سياق ، ولا تعجب أن ينتقل بك من النثر إلى الشعر في غاية الإنسجام ، قال الله تعالى ﴿إن المتقين في جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عذابي هو العذاب الأليم ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون﴾[1].

أنت قرأت هذا النص القرآني ولم تشعر أنك قد إنتقلت من النثر إلى الشعر ثم إلى النثر مرة أخرى دون أن تدري ، أي أنك انتقلت من شيء منثور إلى شيء منظوم ثم من المنظوم إلى المنثور وأتحدى أن يأتي بها إنسان[*].

وعندما تنظر إلى الكلام الذي قيل (نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم) ، نجد فاعلات مستفعل فاعلات ...بيت من الشعر ، ومع ذلك ما أحست أنني انني انتقلت من النثر إلى الشعر، وأنني انتقلت من كلام منظوم إلى كلام منثور.

وقوله تعالى ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[2] ، مفاعيل مفاعيل مفاعيل ، إذن فلا توجد هناك فجوة كلامية في الخطاب القرآني ذي النظم الفريد ، لذلك لا نستطيع أن نقول أنه نثر ولا شعر ولا سجع ، وإنما هو كلام فريد يتناسب مع قول القائل سبحانه وتعالى.

---

(1) سورة الحجر الآيات(45 ...52)

(*) هذا التحدي على لسان الشيخ الشعراوي ، معجزة القرآن ص40 ج1

(2) سورة الكهف(29)

أما النموذج الخطابي الثالث فإن نسوقه مع بيان أثر إختلاف الخطاب المكي عن المدني كما ذكرنا سابقا و نوضحه هنا.

فأهل مكة كانوا أهل شرك وعبادة أوثان وعناد وغطرسة و كانت عقولهم في الدين مقفلة قال الله تعالى في شأنهم : ﴿إن وجدنا آباءنا على أمة و إن على آثارهم مهتدون﴾ و لما ضاق صدر النبي ﷺ لعنادهم من جهة وإنقطاع الوحي من جهة أخرى ، تتنزل سورة الضحى على شكل أقراص أو مهدآت متتاليات تتراوح أنوارها بين الضحى و العُتمة تهدئة و تسلية للنبي ﷺ.

والضحـــى
والليل إذا سجـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــى
مـا ودعك ربك وما قلـــــــــــــــــــــــــــــــى
وللآخرة خير لك من الأولـــــــــــــــــــــــــى
ولسوف يعطيك ربك فترضـــــــــــــــــــــــــى
ألم يجدك يتيما فـــــــــــــــــــــــــــــــــآوى
ووجدك ضالا فهـــــــــــــــــــــــــــــــــــدى
ووجدك عائلا فأغنـــــــــــــــــــــــــــــــــى
فأما اليتيم فلا تقهـــــــــــــــــــــــــــــــــر
وأما السائل فلا تنهـــــــــــــــــــــــــــــــر
وأمـا بنـعمـة ربـك فحـدث

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ولما أصبحت المدينة ملجأ جماعة المسلمين وكان جمهور المخاطبين أربع طوائف المهاجرون والأنصار والمنافقون واليهود فخاطب القرآن المدني هذه الطوائف كلها بأسلوب ليس هو الأسلوب المكي فقال تعالى ﴿لو كان عرضاً قريباً و سفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة﴾[1] ، لقد جاء الخطاب هنا واضحا و فاضحا لنوايا المتخلفين من المنافقين ، وهكذا يتبين أن الأسلوب المدني والأسلوب المكي متباينان موضوعا وأسلوبا.

---

(1) سورة التوبة الآية(42)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* علاقة المجاورة بين السور:

ونحن بصدد السياق القرآني عامة والمراوحة بين إختلاف أساليبه ومواضيعه إنما طرقنا ذلك كله لبيان أن منشأ ذلك الإختلاف كله ناجعاً عن وظائف متنوعة كما هو شأن فضيلة القرآن بإفراغ المضامين المعنوية ضمن قوالب متفاوتة تضفى عليها جمالية منفردة و جمالية مركبة في كلها .

أما الجمالية المنفردة والتي تقصد بها الجمالية الفنية للسورة القرآنية المنفردة فقد طرقت كثيرا ولا خلاف حولها إلا من متعصب أحمق لا يأبه لقوله إلا أن يكون سببا دافعا للتمادي في إثباته ، أما علاقة السورة بعضها ببعض وجماليتها التي تضفي على القرآن الكريم في جملته موضوعية تقتضي التناسق والإتحاد والجمالية المشتركة فذلك الذي نحن بصدد إثباته وبيانه من خلال نماذج نبين من خلالها كيف أن السور المتجاورة – على الأقل- لها علاقات خفية وظاهرة.

أما الوحدة الموضوعية للسورة الواحدة فسنتطرق إليها بعد إثبات خاصية المجاورة بين السور حسب الترتيب.

وقبل الخوض في هذه وتلك يجدر بنا أن نأسس لهذه المواضيع بهذه القواعد والأسس التي تصحبنا طيلة البحث.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

القاعدة الأولى :

كثيرا ما تختم الآيات القرآنية ببعض الأسماء الحسنى للتدليل على أن الحكم المذكور له تعلق بذلك الإسم الكريم[1].

وهذه القاعدة مرتبطة بموضوع المناسبات ولا يخفى أن خواتيم الآيات مرتبطة بموضوعاتها وهذا يدل لا ريب على أن الشرع والأمر والخلق كله صادر عن أسمائه وصفاته قال تعالى ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾[2]. فالتعقيب بهذه الإسمين الكريمين يدل على أن مجرد الإستفادة باللسان لا تكفي بل لابد من تواطئ القلب مع اللسان فهو تعالى سميع لما يقال ، عليم بما يدور في الضمائر.

وقال تعالى ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءاً بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم﴾[3] ، فالتعقيب بهذين الإسمين هنا في غاية المناسبة مع موضوع الآية أي أنه حكم، وخبر *الأعرابي* في ذلك مشهور لا يخفى على القارئ.

وهكذا يتبين أن كل شيء موزون ومناسب لموضوع الآية[4].

---

(1) قواعد التفسير -خالد بن عثمان السبت- دار ابن عفان ، المملكة العربية السعودية ، ط3 (1997) ، ج2 ، ص744

(2) سورة الأعراف الآية(200)

(3) سورة المائدة الآية(38)

(4) يراجع في هذا الفن مدارج السالكين 36/1 ، البرهان 78/1-94 ، أقسام القرآن والفوائد لابن القيم.

القاعدة الثانية

الآيتان أو الجملتان المتجاورتان إما ان يظهر الإرتباط بينهما أو لا يظهر، فغذا كانت إحداهما معطوفة على الأخرى فلا بد أن تكون بينهما جهة جامعة ، وإن لم تكن معطوفة فلا بد من دعامة تؤذن بإتصال الكلام[1].

ولتوضيح هذه القاعدة نقول أن الآية او الجمل القرآنية تنقسم من حيث إرتباط بعضها ببعض إلى قسمين:

الأول : ما يظهر الإرتباط فيه واضحا وذلك لتعلق الكلام بعضه ببعض أو كانت الثانية للأولى على وجه التأكيد والتفسير أو الإعتراض والتشديد وهذا لا إشكال فيه.

الثاني : ما لا يظهر فيه الإرتباط جليا وهذا على نوعين:

1- أن تكون معطوفة على الأولى بحرف من حروف العطف وفي هذه الحالة لابد أن تكون بينهما جهة جامعة.

2- ألا تكون معطوفة فلا بد هناك من قواعد تؤذن بالربط ، كالتنظير أو المضادة أو الإستطراد أو غير ذلك.

---

(1) قواعد التفسير ص746 (بتصرف)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تطبيق على القاعدتين:

1 - على ما ظهر فيه الإرتباط : وأمثلته أكثر من أن تحصى في القرآن الكريم فمن ذلك قوله تعالى ﴿قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق و من شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد﴾[1] قريب من ذلك قوله تعالى ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها﴾[2] فالعلاقة هنا تضاد وشبه تضاد.

2 - أما مثال ما لم يظهر فيه الإرتباط بين الإثنين مع كون الثانية غير معطوفة عن الأولى قوله تعالى ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله وللرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مومنين .....﴾[3]. وعلاقة هذا المقطع والأمر بطاعة الرسول بقوله تعالى ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المومنين لكارهون يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾[4]. وذلك أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يمضي لأمره في الغنائم على كره من أصحابه كما مضى لأمره في خروجه لطلب العير أو للقتال وهم كارهون له. والمقصود أن كراهتهم لما فعله من قسمة الغنائم ، ككراهتهم للخروج وقد تبيَّن في الخروج الظفر والنصر والغنيمة وعز الإسلام فهكذا يكون فيما فعله في القسمة فليطيعوا ما أمروا به ويتركوا هوى أنفسهم[5].

---

(1) سورة الفلق
(2) سورة سبأ الآية(2)
(3) سورة الأنفال الآية(1)
(4) سورة الأنفال الآية(5،6)
(5) انظر قواعد التفسير ، في ظلال القرآن ، التحرير والتنوير

وذكر هذه القواعد سينيرلنا الطريق قليلا حتى يتضح التناسب بين بعض السور المتجاورة موضوعا وأسلوبا.

وقد كانت سورة الفاتحة على قلة آياتها تعد قياسا إلى سورة البقرة كقاعدة دستورية شرحها هو سورة البقرة كاملة ، فإذا حاولنا أن ندمج السورتين بداية بداية ونهاية بنهاية سيكون السياق كالتالي:

[الحمد لله الذي أنزل الكتاب بحروف نعرفها (ألم) ذلك الكتاب لاريب فيه ، هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة و مما رزقناهم ينفقون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ... فإياك نعبد إيمانا بالغيب... بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فاجعلنا من المفلحين فاهدنا صراطا مثل صراط هؤلاء. (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة.....) وجنبنا صفاة الضالين..... وباقي سورة البقرة يتحدث عن الضالين بدءا من إبليس لعنه الله ، الذي عصى ربه مرورا باليهود وإنتهاء بمشركي مكة ومنافقي المدينة ، ثم ذلك التطابق العجيب بين النهايتين ولا الضالين وأنصرنا على القوم الكافرين.

سورة الفاتحة		سورة البقرة
البداية : الحمد لله	——لأنه——	الم ذلك الكتاب لا ريب فيه
النهاية: ولا الضالين	—— وهم ——	فانصرنا على القوم الكافرين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جاءت مقدمة سورة البقرة بعد سورة الفاتحة مباشرة فأرتنا النموذج الذي ينبغي أن نكونه وعرفتنا على نموذجين لا ينبغي أن نكون من أهلهما ، ولنلاحظ خاتمة سورة الفاتحة.

﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم﴾ فهؤلاء رأينا نموذجهم في الفقرة الأولى عن المتقين ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ وقد رأينا نماذج ذلك في الفقرتين الثانية والثالثة من مقدمة سورة البقرة فالكافرون مغضوب عليهم وضالون والمنافقون مغضوب عليهم وضالون ، ولا يتعارض هذا مع كون المغضوب عليهم على الأخص اليهود. والضالون على الوجه الأخص هم النصارى لأن جميع الكافرين والمنافقين على الوجه العام مغضوب عليهم وضالون وقبل الفقرة الأخيرة من الفاتحة يأتي قوله تعالى ﴿إياك نعبد و إياك نستعين﴾ وسنرى أن القسم الأول من أقسام البقرة مبدوء بدعوة الناس جميعاً إلى العبادة ﴿يأيها الناس اعبدوا ربكم﴾ فالصلة بين سورة البقرة والفاتحة على أكثر ما تكون وأدق ما تكون.

ويلاحظ أنه بعد أن قسم الله عز وجل الناس إلى أصناف ثلاثة ، يأتي القسم الأول من أقسام سورة البقرة ليدعوا إلى سلوك الطريق الذي يحررهم من أن يكونوا كافرين أو منافقين ويجعلهم مؤمنين متقين.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ويقول سعيد حوى -رحمه الله- : " قد لاحظت أن الآيات في سورة البقرة مبدوءة بقوله تعالى ﴿آلم﴾ ومنتهية بقوله تعالى ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ وأن سورة آل عمران مبدوءة بقوله ﴿ألم﴾ ومنتهية بقوله ﴿لعلكم تفلحون﴾ فقلت في نفسي هل سورة آل-عمران تفصيل للآيات الأولى من سورة البقرة[1] ، ثم لاحظت أنه بعد مقدمة سورة البقرة يأتي قوله تعالى ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ ، وأن سورة النساء الآتية بعد سورة آل عمران مبدوءة بقوله تعالى ﴿يأيها الناس إتقوا ربكم ... ﴾ فتساءلت عما إذا كانت سورة النساء تفصيلا لآيات تقابلها من سورة البقرة. ثم لاحظت أنه بعد آيات من سورة البقرة يأتي قوله تعالى ﴿وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ... ﴾ وأن سورة المائدة الآتية بعد سورة النساء مبدوءة بقوله تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ... ﴾. ثم جاء بعد ذلك في سورة البقرة ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ و أن سورة الأنعام تفصل هذا المعنى ولذلك تتكرر فيها الآيات المبدوءة بقوله تعالى (وهو) بل آخر آية فيها قوله تعالى ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ ثم نلاحظ بعد ذلك في سورة البقرة تأتي قصة آدم و هي منتهية بقوله تعالى ﴿فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ... ﴾. وأن الآية الثانية في سورة الأعراف هي قول الله تعالى ﴿إتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾ إشارة إلى

---

(1) انظر الأساس في التفسير ، يقع في 11 جزءا من الحجم الكبير

﴿فمن إتبع هداي﴾ ، ثم إن قصة آدم معروضة فيها من أولها ثم بعد ذلك يأتي قوله تعالى من سورة البقرة ﴿ كتب عليكم القتال ... ﴾ وأن سورة الأنفال التي خصت لقضايا القتال كأنها جاءت شارحة لها وقد جاء السؤال في سورة البقرة ﴿يسألونك عن شهر الحرام قتال فيه ... ﴾. وهكذا نرى أن السور السبع التي جاءت بعد سورة البقرة جاءت على تسلسل معين هو نفس التسلسل الذي جاءت به المعاني في سورة البقرة وأن لكل سورة منها محورا محددا في سورة البقرة ".

وبناءا على حديثه ﷺ (أعطيت السبع الطوال مكان التوراة،وأعطيت المئين مكان الإنجيل وأعطيت المثاني مكان الزبور وفضّلت بالمفصل).

قال الشيخ المحدث عبد *الله الغماري* هذا الحديث حسن . وإعتبارا لتقسيمة القرآن الكريم فإن قسم الطوال ينتهي بسورة براءة وقد سبق كيف كانت كل سورة من هذه السور شارحة لسبع (1/7) من سورة البقرة. وإذا إعتبرنا باقي الأقسام (المئين وقسم المثاني وقسم المفصل) فإنا سنرى قريبا مما تجلى في قسم السبع الطوال[1]. ومن تدبر القرآن كله كان له نصيب من ذلك إذ تدبر القرآن فريضة على كل مسلم يقول الإمام *الفخر الرازي* عن قوله تعالى﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾: " إنه أمرهم بالتدبر في القرآن ولو كان غير مفهوم فكيف يأمرهم بالتدبر فيه" وحول قوله تعالى ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافا كثيرا﴾ يقول : " فكيف يأمرهم بالتدبر فيه لمعرفة نفي التناقض والإختلاف مع أنه غير مفهوم للخلق ؟[2]".

---

(1) يراجع الأساس ، ج1

(2) التفسير الكبير –الفخر الرازي– دار إحياء التراث العربي ط3 ، ج2 ، ص2

* التناسب بالجوار حسب ترتيب النزول عند المراغي:

عقد *المراغي*[1] جانبا مهما في تفسيره حول علاقة بعض السور المتجاورة حسب ترتيب النزول نوردها مختصرة كالآتي:

* يقول : " نزلت سورة المجادلة بعد سورة المنافقون ووجه إتصالها بما قبلها " .

1 - أن الأولى ختمت بفضل الله وافتتحت هذه بما هو من هذا الوادي.

2 - أنه ذكر في مطلع الأولى صفاته الجليلة ومنها الظاهر والباطن وذكر في مطلع هذه أنه سمع قول المجادلة التي إشتكت إليه تعالى.

* وعن الحشر يقول نزلت بعد سورة البينة ومناسبتها بما قبلها من وجوه:

1- إن في آخر السالفة الذكر بين حال المنافقين واليهود وتولي بعضهم بعضا وفي هذه ما حال اليهود وبيان عدم فائدة تولي المنافقين ....

2- إن في آخر السالفة قال ﴿كتب الله لأغلبن أنا و رسلي﴾ وفي أول هذه قال ﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب﴾ ، وفي السابقة قوله ﴿من حاد الله ورسوله﴾ وفي أول هذه ذكر لعنه من شاق الله ورسوله.

وفي نفس المنحى نجد بعض المهتمين بهذا الجانب يجعلون شروطا للتفسير ، فمحمد عزة دروزة يقول -بعد أن عدد شروطا للتفسير- : " الإهتمام لبيان ما بين آيات وفصول السور من ترابط وعطف الجمل القرآنية على بعضها سياقا أو موضوعا لتجلية النظم القرآني والترابط الموضوعي لأن هناك من يتوهم أن آيات السور وفصولها مجموعة إلى بعضها بدون إرتباط أو إنسجام " [2]

---

(1) تفسير المراغي -أحمد مصطفى المراغي - دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ص3....30 (بتصرف

(2)التفسير الحديث لمحمد عزت دروزة . دار إحياء الكتب العربية . عيسى البابي

وللفخر الرازي حول سورة الفاتحة إتجاه تحليلي آخر -وقد عرفنا اتجاهه في التفسير- لا يمكن أن يكون كلامه مقبولا إلا إستصحابا للتعالق والترابط والتناسب يقول : " ... وأعلم إنه مر على لساني في بعض الأوقات أن هذه السورة الكريمة يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة فاستبعد هذا بعض الحساد وحملوا ذلك على ما ألفوه من أنفسهم ، فجعلت هذه المقدمة للتنبيه على أن ما ذكرناه أمر ممكن الحصول قريب الوصول ... "[1].

ونحن نستبعد هذا كذلك إلا بالشروط والإستصحاب الذي ذكرنا آنفا.

من خلال هذه النماذج القصيرة عن قصد لعدم الإطالة ، بإمكاننا الجزم أن سور القرآن الكريم كما هي مرتبة في المصحف فضلا -عن ترتيبها حسب النزول- كما رأى *المراغي* نجزم بأن لها إرتباط وثيق ولا يتأتى لأي كان أن يجمل موضوع السورة السالفة إلا إذا إتضحت باللا حقة وهكذا حتى يصبح القرآن كله جملة واحدة وموضوعا واحدا ، أما السورة الواحدة وإن كانت تشكل وحدة كاملة فهي حلقة تامة لكن لا يصدق عليها كلمة سلسلة بل هي حبة من عقد لها جمالها منفصلة ولها موضعها الجمالي المخصوص من باقي القرآن الكريم.

قد إنتهينا من الأقسام الثلاثة العلمية والأدبية والخطابية وهي بجملتها بحاجة إلى مقومات تسمو بها وتكون لها سبب للتفنن حتى تتجاذب المعانيَ الألفاظ والأساليب على أننا إذا تدبرنا جمالية القرآن الأسلوبية وجدناها بمستواها الإعجازي ، فريدة في نوعها ، عالية في نسقها ، فذة في طابعها وهي تشكل الوحدة العالية التي تتجسد في الخلاف والتعدد والخصوبة الباهرة.

---

(1) مقدمة التفسير الكبير

المبحث الثالث

بعض المقومات الخطابية:

على إختلاف النهج القرآني في الخطاب عن النهج الإنساني ، فقد كان كافيا لإستجابة جميع متطلبات المجتمع الإنساني النفسية والتشريعية المتمثلة في مصالح العباد ضمن إطار خطابي يضمن الإقناع والتبليغ في آن واحد.

يقول الدكتور عشراتي: " الأدبية القرآنية تمثل إنزياحا متعاليا عن النماذج القبلية والبعدية لعصر البعثة ومثول الظاهرة القرآنية ببعدها الإعجازي الثابت أعطى للسنن البياني العربي جمالية مفتوحة على التنويع والتجديد ضمن بيان مركزي متمحور حول تعبيرية الخطاب التي أضحت مرجعية الإلهام والتذوق والتمرس بالقياس لبداغوجية الأمة العربية في مستوياتها التقليدية والتحديثية على حد السواء "[1].

هذا على الرغم أن القرآن موجه إلى فئات وحشود تختلف نفوسها بإختلاف أنفاسها ، ولا يمكن لأي خطاب أو خطيب أن يبلغ جميع ذلك منهم بسبب الأنفعال الإنساني والخلفية الثقافية والنفسية لكل خطيب أما القرآن الكريم فمجازيته تصوغه في خطابية توصلية ، واقعيتها روحية مصهورة بحس برئ من شوائب الإنفعال الذاتي المتقلب المحكوم بحاجة النفس والأهواء و المقاصد الدنيا ، وذلك مما يثبت ويدل على صحة ما ذهبنا إليه.

---

(1) أدبية الخطاب القرآني ص398

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وهذه المقومات التي نحن بصدد الحديث عنها لا يمكن حصرها ولكن نكتف بالإشارة إلى مقومين إثنين فلما كان الإلتفات والحذف ظاهرتين أسلوبيتين لافتتين في القرآن العظيم فسأقف على بعض المواقف منهما إبرازا لخصوصية أدائية كان الخطاب العربي عامة يصدر عنها ولعل ما عرف بالتعدية في مطالع القصائد العربية هو نوع من الإلتفات الذي كان يباشر به أصحاب القول الجميل أغراضهم.

الأمر الذي يبين أن أخذ القرآن بأسلوب الإلتفات إنما كان منه ذلك سير على نهج سنن عربي لكنه سما به سموا قدسيا بحيث تبين لنا مواقف الإلتفات فيه مدى الجمالية الإعجازية التي باشر بها القرآن مواقف الإلتفات والحذف كما سنبين ويشهد لما ذهبنا إليه الكثير من كلام العرب وقريب من ذلك ما إصطلح عليه صاحب دلائل الإعجاز بالفصل والإستئناف ونمثل بهذه الأبيات لابن الدمينة:

أبيني أفي يمين يديك جعلتني فأفرح أم صيرتني في شمالك
تعاللت كي أشجى وما بك علة تريدين قتلي **قد ظفرت بذلك**

يقول *الجرجاني*[1]: "وأنظر إلى الفصل والإستئناف في قوله (قد ظفرت بذلك) " ومثله قول الشاعر :

مكتئب ذو كبد حرى تبكي عليه مقلة عبرى
يرفع يمناه إلى ربه **يدعو** وفوق الكبد اليسرى

وأنظر إلى موقع " يدعو " وكيف كانت فاصلا بين وضعين دون أن يتأثر السياق

---

(1) دلائل الإعجاز –عبد القاهر الجرجاني– ص398

1- **المقوم الأول : الإلتفات**

الإلتفات هو الإنتقال المفاجئ من صيغة خطابية إلى صيغة خطابية أخرى أو من موضوع إلى موضوع آخر يقتضيه السياق في جملته أو في جزئية منه.

أو هو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر تطرية واستدرارا للسامع وتجديدا لنشاطه وصيانة خاطره من الملل والضجر بدوام الأسلوب الواحد على سمعه[1].

وهذا كما قيل:

لا يصلح النفس إذا كانت مصرفة إلا التنقل من حال إلى حال

وهذه الإلتفاتة إلى الإلتفات إنما خُصت بالبحث إبتداءا لأنها من أهم الأسباب المقتضية إلى التنوع في الأساليب وفيه أقسام عديدة يجدر بنا أن نشير إليها ليتضح المقال.

- **نماذج للإلتفات في القرآن الكريم :**

الإلتفات الخطابي يكون من المتكلم إلى المخاطب ووجهه حثُ السامع على الإستماع مع الإقبال كقوله تعالى في سورة يس ﴿**ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون**﴾[2]. يقول فضيلة المشرف : " فإذا ألغينا هذا الإلتفات سيصبح السياق كالتالي (ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه أرجع) ، والفارق هنا أن الصيغة القرآنية في هذا المقام عممت الحكم برجوع الناس أجمعين إلى الله ، على أن الدلالة (ترجعون) الجمعية بعداً إيقاعياً جمالياً تنسجم به الآية مع نغمية السورة[3].

---

(1) البرهان في علوم القرآن ص314

(2) سورة يس الآية(22)

(3) أدبية خطاب القرآني ص400

وهناك دقيقة نرى أنه لا بد من الإشارة إليها وهي أن قوله تعالى و" إليه أرجع يحمل معنى اليأس والإستغناء والإعراض عن المخاطب ، فكأنك تقول مالي ومالك حذرتك لكني راجع إلى الله ثم تتركه لسبيله دون أن تدع لديه فرصة للتأمل أو المراجعة ، أما قولك :"وإليه ترجعون" فيه إشارة إلى أن مصير المخاطب والمخاطب واحد وإشراكه في المصير جزء من إشراكه فيما قبل المصير ، فتحدثه نفسه بعد إنتهاء الكلام ، ومادام مصيرنا واحد قد يكون خطابه صادقا ، وقد يؤمن بعد ذلك والفضل في ذلك كله لحرفي (و، ن) فقط في (ترجعون).

والإلتفات يكون كذلك من الخطاب إلى الغيبة وهو كثير في القرآن الكريم منه قوله تعالى ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان﴾[1] ، وفائدة العدول عن خطابهم إلى حكاية حالهم لغيرهم لتعجبه من فعلهم وكفرهم ، إذا لو إستمر على خطابهم لفاتت تلك الفائدة ولأستدعي الأمر آية أخرى تبين عاقبة كفر النعمة وعقاب الله عليها ، وقد ذكر قريباً من هذا الكلام صاحب البرهان[2].

فالخطاب القرآني يعتمد التنوع لحكمة وللزجر والنصيحة ويعدد بعض المواضيع للبيان والفضيحة كقصة بني إسرائيل كما يهدف هذا التنوع إلى تناسب السياق وسنوضح ذلك كله بإذن الله تعالى هذا مع إعتبار ما يتميز به القرآن في الخطاب بتلك القصدية المتمثلة في حيويته و قدرته الفائقة على مباشرة الموضوعات وفق رؤية إقناعية وجمالية ، وذلك كله بعيداً عن التفصيلات الفرعية أو الخارجية التي تبعد بالسردية القرآنية عن لحمة موضوعها .

---

(1) سورة يونس الآية(22)
(2) انظر البرهان ج3 ص318

وإنتقال الصيغة القرآنية من وضع أسلوبي إلى آخر حسب مقتضيات المقام أساليب وأشكال متعددة ، فهناك النقلة المفاجئة التي إن لم يتدبرها الذهن لا يعرف لها سببا ومثل هذا سبب إشكالا قديما وحديثا للمتهمين بهذا الفن ، فالإنتقال من السياق إلى آخر لا بد له تناسبا يقتضيه ظاهرا أو خفيا ، فعلى سبيل المثال عندما توسطت هذه الآيات التي تطمئن رسول الله عليه الصلاة والسلام بحفظ القرآن وأن لا يعجل به لأن الله يحفظه ، وهي الآيات ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه﴾[1] . مع أن باقي السورة تتحدث عن القيامة من أولها إلى آخرها عندها وقف الكثير[2] ، وقد ذكر هذا الوقوف والعجز صاحب البرهان[3].

وهذا التنوع في الأساليب من مظاهره الإلتفات.

وللإلتفات حالات كثيرة لا يهم البحث كثيرا تقصيها ولكن نشير إلى بعض أسبابه فله فوائد عامة كالتفنن والإنتقال من أسلوب إلى آخر ، والبيانيون يقولون : إن الكلام إذا جاء على أسلوب واحد وطال ، حسن تغيير الطريقة ، وإن كان للقاضي *شمس الدين بن الجوزي* رأي يقول : " أن مجرد هذا لا يكفي في المناسبة ... وإنما المناسبة أن الإنسان كثير التقلب فإنه يكون غائبا فيحضر بكلمة واحدة وآخر يكون حاضرا فيغيب ، فالله تعالى لما قال ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ تنبه السامع وحضر قلبه فقال ﴿إياك نعبد و إياك نستعين﴾[*].

---

(1) سورة القيامة الآية(17)

(2) يراجع في هذا المقام البرهان والإتقان وأقسام القرآن

(3) البرهان في علوم القرآن ج3 ، ص314

(*) نقلنا هذا الكلام (بتصرف) عن البرهان ج3 ، ص326

وأما الخاصة فتختلف بإختلاف محاله ومواقع الكلام فيه على ما يقصده المتكلم وهذا منثور في القرآن الكريم ويستدعي الوقوف عليه حالة حالة على إختلاف مراميه ، كالتنبيه على ما حق الكلام أن يكون واردا عليه ، وقصد المبالغة ، ومثاليه (ترجعون ، وجرين بهم) ومنها قصد الإختصاص كقوله تعالى ﴿واللّه الذي أرسل الرّياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميّت فأحيينا به﴾[1].

ومنها كذلك قصد الإهتمام كقوله ﴿ ... فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها﴾[2] ، ومنها قصد التوبيخ ﴿ وقالوا إتخذ الرحمان ولداً لقد جئتم شيئاً إدا.....﴾[3].

وهذا الباب واسع يستدعي مؤلفا ومؤلفا خاصا به وسنطرقه عند حديثنا في موضوع السورة الواحدة بإذن الله تعالى.

---

(1) سورة فاطر الآية(9)
(2) سورة فصلت الآية(11)
(3) سورة مريم الآية(78)

2- المقوم الثاني : الحذف

ويدخل ضمن ذلك التنويع الحذف ، وهو مظهر إقتصادي فله ميزات عديدة في تنويع الكلام ولذة الإستطناب والتفخيم والإعظام ولذا قال صاحب الصناعتين: " ما من اسم حذف في الحالة التي ينبغي أن يحذف فيها إلا وحذفه أحسن من ذكره "[1] ولله در القائل :

إذا نطقت جاءت بكل مليحة ولن سكتت جاءت بكل مليح

والحذف -وهوإسناد الفعل إلى غيره- لا يجوز إلا بدليل إحتيج إلى ذكر دليله ، والدليل تارة يدل على محذوف المطلق وتارة على محذوف معين كقوله تعالى ﴿واسأل القرية﴾[2] ، وهو أنواع كثيرة ، فالحذف يجعل الكلام يتنوع بتنوعه وهو ينقلك بحذف لفظ أو تحويل معنى إلى عالم آخر تفكر فيه مليا مما يسبب للقارئ فاصلا زمنيا ينسيه (روتين) أو رتابة الخطاب ، وهو كذلك قفزة أسلوبية قل ما ينتبه إليها وهو فضلا عن كونه لازما فنيا فهو ضرورة بلاغية لا يسد ثغرتها سواه. ويقول *الجرجاني* كذلك : " والحذف باب دقيق المسالك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ،فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر،...والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة [3].

ونمتثل لذلك بقول الأقيشر في ابن عم له موسر سأله فمنعه ولطم وجهه بعد ذلك فقال :

سريع إلى إبن العم يلطم وجهه وليس إلى داع الندى بسريع
حريص على الدنيا مضيع لدينه وليس لما في بيته بمضيع

---

(1) أسرار البلاغة ص366
(2) سورة يوسف الآية(82)
(3) دلائل الإعجاز ص150

فانعم بذلك الإستئناف من وصف حالة الحاضر إلى الإنتقال بليس وليس.
يقول الدكتور عشراتي : " ... فالحذف الذي يطرأ على معيار الجملة من داخل بنيتها --والذي قد يكون ذا طابع بنيوي توزيعي- هو ما يعيطها خاصية أدبية نوعية "[1].

وقبل أن نورد لذلك نماذج ينبغي لفت النظر إلى أن الحذف مدخل دقيق وله ضوابط وضعها العلماء تمنع من بعض الإنزلاقات وهذه الضوابط هي كالتالي:

1- أن تكون في المذكور دلالة على المحذوف إما من لفظه أو من سياقه وفي هذا المعنى قيل لابد أن يكون فيما أبقي دليل على ما ألقى.

2- التقدير النحوي كقولهم في ﴿لا أقسم بيوم القيامة ... ﴾[2]، إن التقدير (لأنا أقسم) لأن فعل الحال لا يقسم عليه وقوله تعالى ﴿تفتأوا تذكر يوسف﴾[3] ، والتقدير (لا تفتأ) لأنه لو كان الجواب مثبتا لدخلت اللام والنون كقوله ﴿بلى وربي لتبعثن﴾[4].

3- إذا كان المحذوف فضلة فلا يشترط لحذفه دليل ولكن يشترط أن لا يكون في حذفه إخلال[5].

---

(1) أدبية الخطاب القرآني ص401
(2) سورة القيامة الآية(1)
(3) سورة يوسف الآية(85)
(4) سورة التغابن الآية(7)
(5) البرهان ج3 ، ص3

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كما أن هناك مهمات متعلقة به منها[1]:

1- الأصل أن يقدر الشئ في مكانه الأصلي لأن لا يخالف الأصل من وجهين.
الحذف : هو وضع الشئ في غير محله.

2- الحذف : خلاف الأصل ويبنى على ذلك أمران :
- إذا دار الأمر بين الحذف وعدمه كان الحمل على عدمه أولى .
- إذا دار الأمر بين قلة المحذوف وكثرته كان الحمل على قلتة أولى.

3- ما من إسم حذف في الحالة التي ينبغي أن يحذف فيها إلا وحذفه أحسن من ذكره.

4- مهما تردد المحذوف بين الحسن والأحسن وجب تقدير الأحسن لأن الله تعالى وصف كتابه بأنه أحسن الحديث.

---

(1) قواعد التفسير ج1 ، ص362

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- نماذج للحذف في القرآن الكريم :

قد يأتي الحذف على أن الزمان يتقاصر على الإتيان بالمحذوف وأن الإشتغال بذكره يفضي إلى تفويت المهم ، وهذه فائدة باب التحذير نحو : الطريق الطريق !! الله الله !! أو باب الإغراء وهو لزوم أمر يحمد به وقد إجتمعا في قوله تعالى ﴿ناقة اللّه وسقياها﴾[1] على التحذير أي إحذروا ناقة الله فلا تقربوها و(سقياها) إغراءا بتقدير إلزموا ناقة الله.

وجاء في موضوع التعجب والتهويل قوله تعالى في وصف أهل الجنة ﴿حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها﴾[2] فحذف الجواب ، فجعل الحذف دليلا على ضيق الكلام عن وصف ما يشاهدونه ، وتركت النفوس تقدّر ما شأنه ، ومنه ﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾[3] ، قال *الزمخشري* : " وهذا من باب الإختصار ومن جوامع الكلام المتحملة مع قلتها للمعاني الكثيرة " ، والأمثلة أكثر من أن تحصى ... لكن نجزم بأن لكل من هذه المقومات الخطابية فضلا على غيرها الذي قصدنا عدم الخوض فيه وكلها وظائف تناسبية ترقى بالسياق القرآني إلى الإعجازية المعجزة.

يقول صاحب كتاب أدبية الخطاب القرآني: " والصورة القرآنية واسطة تبليغية تكثفت تعبيريتها على نحو طابق فيه محور التوصيل والفنية ، فأنتجا الصورة التي تتبع عن خطاب هويته الأدائية نفسها فنية تعبيرية تستوعب بأصالة التنويعات الخطابية على مختلف مناحيها ، وترقى بها فنيا ليظل الخطاب مطبوعا بمقومات الأدبية القرآنية الفذة "[4].

---

(1) سورة الشمس الآية(13)
(2) سورة الزمر الآية(73)
(3) سورة طه الآية(78)
(4) ص415

وقد سبق ذكر هذه المقاطع ولكن لحسن إستعمالها جاز لدينا تكرارها ، و بناءا على هذا فإن ذلك التنوع لم يكن إعتباطيا بل حسب الحالات والمواقف والمواقع الخطابية كما سيأتي في الفصل القادم.

ملاحظة:

يجدر بنا أن نكرر مرة أخرى ، أن إقتصارنا على هذين النموذجين لا يعني أن ليس هناك مقومات خطابية أخرى ، ولكن آلينا على أنفسنا في هذا البحث عدم الإطالة وكثرة التفريعات التي من شأنها أن تنحرف بالموضوع إلى دراسات أكاديمية أكثر منها نظرية علمية ، فليحسن بنا ظنا في هذا الشأن.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(5) سورة القمر الأيات(11،12)

الباب الثاني :

بنيتي السورة والتناسب الأدائي الموضوعي

الفصل الأول :

المبحث الأول :
المبحث الثاني :
المبحث الثالث :

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول

بنية السورة والتناسب الأدائي الموضوعي:

قد سبق الحديث عن ماهية الترابط الأسلوبي وصيغه المختلفة بين موضوعات السور القرآنية -كما استنتجنا- وتجلى ذلك واضحا في تباين الأساليب القرآنية خاصة بين ما نزل بمكة ، وما نزل بالمدينة المنورة ، ما كان نابعا عن حرب أو كان ممتدا عن سلم.

وفي هذا المبحث يجدر بنا أن نشير على سبيل الإجمال إلى تناسب الوحدات الموضوعية في القرآن الكريم ، من حيث حسن المجاورة بين المعاني فالألفاظ والفواصل ، ثم نذكر نماذج قرآنية مختلفة -كما سيأتي- ثم نعرض دراسة صوتية نغمية يتجلى من خلالها التناسب في أسمى معانيه ، على أن يكون ذلك -ما ذكرنا- عاما يعم القرآن ريثما نخلص إلى تطبيق ذلك كله على سورة واحدة تكون نموذجا ومثالا للذي أردنا.

مجاورة المعاني المتناسبة :

هناك قاعدة جليلة ذكرها صاحب الإتقان ، وأقرها صاحب قواعد التفسير[1] نصها: " الأمر الكلي لمعرفة مناسبات الآيات في جميع القرآن أن ينظر إلى الغرض الذي سيقت له السورة ، ثم ينظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات ثم ينظر

---

(1) قواعد التفسير ص748

إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب ، كما ينظر عند إنجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام ، أو اللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الإستشراف إلى الوقوف عليها.

هذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن الكريم ويمكننا إضافة شرط لهذه القاعدة يتمثل في إستصحاب سبب النزول كما أثبتنا ذلك في الفصل الأول إذ سبب النزول طريق قوي لمعرفة معنى الآية كما أقره *ابن دقيق العيد والنيسابوري والزركشي والسيوطي وابن تيمية وتلميذه ابن القيم*[1].

وبناء على هذه القاعدة فإنا سنطبق ذلك على سورة نموذجية من القرآن الكريم في ترابط المواضيع حتى لايتشتت ذهن القارء. ثم نذكر نموذجين ، الأول من سورة البقرة والثاني عن تناسب الهلاك مع المعصية ونتبعها بنماذج متعددة كلها ترمي نفس الغرض.

ولنبدأ بما جاء في سورة (ق) ، فهي من السور المكية آياتها خمس وأربعون آية ، يذكر *النيسابوري* أن الآية ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾[2] ، أنها نزلت في الرد على اليهود في زعمهم أن الله عز وجل ، قد خلق السموات والأرض في ستة أيام واستراح في اليوم السابع[3].

وهذه السورة ذات المقاطع القصيرة والنقلات السريعة تجعل إتحاد الموضوع يكاد يكون صعبا بدون التمعن.

---

(1) راجع الكتب المؤلفة في هذا الشأن للمؤلفين أعلاه

(2) سورة ق الآية(38)

(3) انظر تفسير ابن كثير و اسباب النزول الواردة حول الآية.

بسم الله الرحمن الرحيم

ق والقرآن المجيد(1)بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب(2)أءذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد(3)قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ(4)بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج(5)أفلم ينظروا فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج(6)والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج(7)تبصرة وذكرى لكل عبد منيب(8)ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد(9)والنخل باسقات لها طلع نضيد(10)رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج(11)كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود(12)وعاد وفرعون وإخوان لوط(13)وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد(14)أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد(15)ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد(16)إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد(17)ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد(18)وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد(19)ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد(20)وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد(21)لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد(22)وقال قرينه هذا ما لدي عتيد(23)ألقيا في جهنم كل كفار عنيد(24)مناع للخير معتد مريب(25)الذي جعل مع الله إلها آخر فألقياه في العذاب الشديد(26)قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد(27)قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد(28)ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد(29)يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد(30)وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد(31)هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ(32)من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب(33)ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود(34)لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد(35)وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص(36)إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد (37)ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب(38)فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب(39)ومن الليل فسبحه وإدبار السجود(40)واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب(41)يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج(42)إنا نحن نحي ونميت وإلينا المصير(43)يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير(44)نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد(45)

-صدق الله العظيم-

تقسيم مواضيع السورة:

فهذه السورة[1] ، كما ترى :

١- مقصودها تقرير البعث والنشور.

٢- المقدمات الأساسية التي يحتاجها هذا الموضوع.

أ - أدلة القدرة على البعث ، الآيات

ب - الرد على شبهات المنكرين للبعث الآيات

ج - ذكر زمن ما بعد البعث وأحوال الناس فيه الآيات

٣- ترتيب المقدمات السابقة يكون هكذا (ب،أ،ج)

٤- ذكر بعض اللوازم التي ينجر إليها الكلام بعد المقدمات (فضل القرآن ، التذكير بما حاق بالمكذبين ، أمر النبي ﷺ بالصبر، تأكيد البعث)

فإذا طبقنا هذا كله على السورة نجد أنها استوفت كل الشروط السابقة ، فالقضايا التي عالجتها سورة (ق) هي:

٠١- التنويه بشأن القرآن ﴿ق والقرآن المجيد﴾ (الآية ١)

٠٢- تكذيب المشركين للنبي ﷺ لأنه من البشر(بل عجبوا .....عجيب﴾ (الآية ٢).

٠٣- شبهة المنكرين للبعث ﴿أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد﴾ (الآية ٣)

٠٤- الجواب عن شبهتهم بذكر تمام إحاطة الله عز وجل بهم ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض...مريج﴾ (الآيات ٤،٥).

---

(١) يراجع تفسير بن عاشور ٢٧٥/٢٦ ، في ظلال القرآن ١٥٥/١٥٤ ، قواعد التفسير ص٧٤٩ ، الكشاف للزمخشري (سورة ق).

وقفة مع المقطع الأول :

الملاحظ في هذه المحطات الأربع الأولى أن التوافق والتناسب بينها كان كالتالي:

- إثبات مصدرية القرآن أنه لله وإثبات صفته (مجيد) ثم الإشارة إلى تكذيب البشر مع ذكر شبهتهم ، إذ ذكر الشبهة يشعر المدعي أن المدعى عليه وهو الله يعرف حقيقة الأمر ثم دحض هذه الشبهة ، فكما علم شبهتهم فهو عليم بمصيرهم الذي هو البعث.

٥- ذكر أدلة البعث ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها.....كذلك الخروج﴾ الآيات (٦،٧،٨،٩،١٠،١١) ، ثم تأكيد القدرة على ذلك بقوله عز وجل ﴿أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد . ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد.....رقيب عتيد﴾ الآيات (١٥،١٦،١٧،١٨)

وللسائل أن يسأل ما شأن الآيات (١٢،١٣،١٤) والتي تتحدث عن المكذبين من قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع ؟

والجواب أنها إشارة تاريخية توسطت الحديث كي تجعل القارئ يمزج بين الحقيقة الدينية (التلقين/التلقي) وبين الحقيقة التاريخية (الذكرى/العبرة)وهذا يعد تنظيرا للمشركين في تكذيبهم الرسالة ووعيد لهم أن يحل بهم ماحل بأولئك.

٦- ذكر الآخرة والوعيد للكافرين ، من لحظة الإحتضار ﴿وجاءت سكرة الموت

بالحق....هل من مزيد﴾ (الآيات ١٩ إلى ٣٠) إلى يوم الحشر ﴿واستمع يوم ينادي المنادي ... ذلك حشر علينا يسير﴾ (الآيات ٤١،٤٢،٤٣،٤٤).

٠٧- وعد المؤمنين بنعيم الآخرة ﴿وأزلفت الجنة للمتقين....ولدينا مزيد﴾ (الآيات ٣١،٣٢،٣٣،٣٤،٣٥)

وقفة مع المقطع الثاني:

هذا المقطع يعتبر نتيجة تلك المقدمة ، فهناك خاسرون وهم المكذبون ومادام الحديث عن البعث والمكذبين به فالآيات بدأت بالحديث عنهم في المرحلتين.

وهناك مفلحون وهم المؤمنون أشارت إليهم الآيات لبيان المفاصلة والمفاضلة وكي يتسق الكلام بالمقابلة وهومانطلق عليه (الطباق الموضوعي).

وكذلك تخلل هذه النتيجة الثانية تنظير للمكذبين وتذكير لهم ، اتضح في قوله تعالى ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص﴾ الآية (٣٦).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

النموذج الثاني :

هناك محطة أخرى من محطات القرآن الكريم توهم بعدم الترابط بين موضوعاتها وذلك -طبعا- لمن لا يتدبر.

هذه الآيات من سورة البقرة {الذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم} (الآيات 226 الى 237) ، فهذه الآيات كلها تتحدث في أمور النساء والحالات الاجتماعية من طلاق وإيلاء وإرضاع ، فتباغتنا الآيات التالية التي تأمر بالصلاة والقيام بالقنوت حتى في حالات الخوف والأمن وهي قوله تعالى {حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين فإن خفتم فرجالا وركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون} (الآيتين 238،239) ، ثم يستأنف السياق حول أمور النساء من طلاق ووصية ، فالحديث عن القتال ، فما وجه الربط بين هذه الموضوعات ياترى ؟

التعليل :

نعتقد أن ذلك يجد جوابه في النقاط التالية :

01- جاءت هذه الآيات في حيز الأمر بالدخول في الإسلام كله ، وإذا ساد السياق في أحكام حياتية كثيرة ، فقد ناسب التذكير بالصلاة في هذا المقام ليعلم أن الصلاة هي الإبتداء وهي الوسط وهي الإنتهاء ولذلك انتهت سورة البقرة بالدعاء الذي هو مخ الصلاة ورديفها في إستعمال اللغة.

02- أنه بلا معرفة الله بالله لايدخل الإنسان في الإسلام كله وبلا صلاة لا تكون معرفته بالله﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾[1].

03- إن مجيء الأمر بالصلاة بين أحكام الطلاق وغيرها من شؤون المجتمع يشعر أن الإلتزام بهذه الأحكام يتكرس في نفس المؤمن بملازمته الصلاة والمداومة عليها.

04- الأيتان اللتان تأمران بالصلاة هنا توطئة لما بعد آية الطلاق وربط لما بعدها بما قبلها ، فبعض الأسئلة التي ذكرت في الآيات السابقة ذكرت فريضة القتال وما بعد آيات الطلاق كلام عن القتال[2].

05- إشارة إلى أن ترك الصلاة ربما كان سببا في حدوث الطلاق ، كما أن ترك الصلاة قد يكون سببا في التخلي عن القتال أو سببا في نشوبه ، قال رسول الله ﷺ العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر[3].

06- إشعار بأن الغضب عند الطلاق قد يستمر ويستمر بذلك العزم عليه ، فإذا توضأ الإنسان يطفئ بذلك جمرة الغضب ، وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ بقوله : "فإذا قرأ القرآن اطمأن قلبه" ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[4] وقال الله تعالى ﴿الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾[5]. فإذا فعل ذلك كله عاد إليه رشده وزايله الغيض.

وانظر كيف ختم الله الحديث بذكر الله ، من سورة (الزمر) وكيف ختم هناك من سورة (البقرة) بذكر الله كذلك.

---

(1) سورة العنكبوت - الآية (45)
(2) انظر تفسير سورة البقرة حول آيات الطلاق
(3) رواه أصحاب السنن
(4) سورة الرعد - الآية (28)
(5) سوؤة الزمر - الآية (23)

صورة موضوعية وسياقية لتشابه الموقفان.

07- المرحلة السابعة والأخيرة تشترك مع المرحلة السادسة ، فكما أظهر الله قدرته المتمثلة في الخلق والإبداع {ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب} (الآية 38) ، أظهر قدرته بالتسرية على نبيه ﷺ {اصبر على ما يقولون .....وإدبار السجود} (الأيتان 39،40) ، وقوله تعالى {نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد} (الآية 45).

وقفة مع المقطع الثالث :

الملاحظ في هذا المقطع أنه حوصلة لمضمون السورة ، فقد أثبتت القدرة في الخلق والميعاد ودحض شبهة اليهود حول خلق السموات والأرض وراحته في اليوم السابع (كما بينا في سبب النزول) بقوله عزوجل (وما مسنا من لغوب) ، وأمر النبي ﷺ بالصبر والعبادة ثم أكد البعث (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) الذي أقسم به في الأول (ق والقرآن المجيد).

عود على بدء...هكذا انتهت السورة ، (ذكر من يخاف وعيد) ... من يخاف الآخرة ، أي من يصدق بالبعث والجزاء، لا من يقول -في بداية السورة- (أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد) إنها روعة الاستهلال وعظمة الختام...إنه التناسب والتناسق بين موضوعات السورة الواحدة بحيث أنك لو بدأت السورة من نهايتها لتوصلت إلى نفس الترتيب حين قراءتها من بدايتها ، الشيء الوحيد الذي يتغير أن الختام كان بيانا وتحذيرا والبدء كان إخبارا وتأصيلا أو تأسيسا وتثبيتا.

المبحث الثـــاني

النموذج الثالث :

تناسب الهلاك مع المعصية

القراءة السردية قد تجعل القارئ لا يتمعن كثيرا في الفروق التي تتباين من هلاك أمة إلى أخرى ولماذا كان نصيب كل واحدة يختلف عن الأخرى على الرغم من أن الكفر ملة واحدة وبصدد الحديث عن التناسب لا بد أن نشير إلى هذه النقطة كزاوية من زوايا التناسب حتى يتاتى لنا التناسب القرآني الشامل من حيث الموضوع ومن حيث الأسلوب ثم –هاهنا– من حيث الدقة في المكافأة وأن الجزاء من جنس العمل.

يقول صاحب أضواء البيان[1] : "...أما فرعون فقد قال الله في شأنه ﴿ونادى فرعون في قومه أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون﴾[2] ، فلما كان يتطاول بها جعل الله هلاكه فيها ، أي من جنسها "

ويتضح هذا من وجهين :

أ – أنه ادعى الربوبية واستدل عليها بملك مصر وجريان الأنهار فأراد الله عز وجل أن يقول له إن كنت ربا للأنهار فلماذا لم تكن ربا للبحار ، فتنجوا منها الآن.

ب– نجاه الله عز وجل ببدنه سالما ليكون لمن بعده عبرة والماء هو الوحيد الذي ينجيه كما هو بخلاف الحرق أو السحق أو الريح الشديد.

02– وأما قوم نوح فلما ينس منهم بعد ألف سنة إلا خمسين وأصبحوا لا يلدوا إلا فاجرا كفارا فلزم تطهير الأرض منهم ولا يصلح لذلك إلا الطوفان الجارف. ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾[3].

---

(1) أضواء البيان – ج 8– ص442

(2) سورة الزخرف الآية(50)

(3) سورة القمر الآية (12)

03- وأما ثمود فأخذوا بالصيحة الطاغية لأنهم {نادوا صاحبهم فتعاطى فعقر}[1] ، فلما كان نداؤهم سببا في عقر الناقة جرأة على الله ، كان هلاكهم بالصيحة.

04- وأما عاد فلطغيانهم بقوتهم {ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد}[2] ، فأخذوا بالريح {كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر}[3] ، والريح وهو أرق وألطف الأشياء ، عوقبوا به وهو مما لم يكونوا يتوقعون منه المضرة.

05- وأما قوم لوط فلكونهم قلبوا الأوضاع في حياتهم الجنسية فقلب الله عليهم قراهم -والجزاء من جنس العمل- {فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود}[4]

ونخلص من هذا أن بنية الخطاب القرآني بنية متماسكة في سائر أحوالها ومواطنها ، سواء بتلاؤم موضوعاتها أو بتواصل سياقاتها ، الأمر الذي ينفي عن القرآن الكريم تهمة التفكك التي طالما شهرها المستشرقون وأعداء الدين ومن سار في ركابهم ممن زعموا أن موضوعات القرآن وقصصه وتشريعاته متناثرة ، متفككة لا ينظمها سلك ، بل إن بعض المستشرقين ذهب إلى حد المطالبة بوضع مسارد موضوعية للقرآن الكريم تنتظم بها موضوعاته في وحدات .

---

(1) بقية الآية من سورة الزخرف الآية 51

(2) بقية الآية من سورة القمر 18 19 20 ، تحليل أضواء البيان ج 8 ص: 442

(3) الآية فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر... إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر الآيات : 29 30 31 من سورة القمر.

(4) الآيات : 6 7 8 من سورة الفجر.

(5) سورة هود الآية 82 .

ومن هؤلاءالمستشرقين " نولديكـــا ، وجولدزيـــهر" (NOLDIKA et GOLDSHEIHER) وتظل نظرتهم مشروطة بثقلفة كتابية ، ذلك لأن الإنجيل قد اتسقت موضوعاته إتساقا سرديا بما هو إبداع وضعي من إنجاز البشر على خلاف القرآن الكريم الفـــذ فـــي جنسه ، الفذ في طرحه ، وقد كفانا الرد على أولئك الدكتور محمد محمود حجـــازي بقوله : " ...فإن قيل تكفينا سورة واحدة كاملة ، بأسلوب واحد ، وتصوير واحـــد ، هذا كلام من لم يدرس القصة في القرآن ، ولم يعلم أن المصور إذا أراد أن يعطيك الصورة الكاملة لشيء لا بد أن يصوره في عدة أضواء ، وفي عدد من الإتجاهـــات حتى تستطيع أن تدركه ، إذ التكرار لازم " (1)

(1) : الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم ، محمد محمود حجازي – دار الكتـــب الحديثـــة ص11 –

مناسبة الألفاظ للمعنى المراد :

هناك دقة متناهية في نظم القرآن الكريم وفي ميزة ألفاظه وتمكنها بإضفاء ظلالها على المعاني ، ولا يتفق ذلك لأحد معرفة ، إلا ثاقب الفكر.

يقول المرحوم محمد *الغزالي* في تعليقه على قوله تعالى {وماكان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون}[1] :" لنتدبر هذه الجملة ...إنه قال : وأهلها مصلحون ولم يقل وأهلها صالحون ، لأن الإصلاح الشخصي المنزوي بعيدا لا يأسى بضعف الإيمان ولا يبالي بهزيمة الخير . صلاح لاقيمة له ولاخير فيه ، كن صالحا مصلحا وراشدا مرشدا "[2].

فالألفاظ في القرآن الكريم ضوابط وحدود[3] ولا ينتبه لذلك إلا بالتمعن والتدبر يقول عبد *القاهر الجرجاني* ، حول المعاني التي لا تدرك إلا بالتعقل: "والمعقد من الشعر والكلام لم يذم لأنه مما تقع حاجة فيه إلى التفكر على الجملة ، بل لأن صاحبه يعثر فكره في متصرفه"[4].

بهذه المعاني ، وإدراكا منا أن الألفاظ خدم للمعاني وعجينتها التي تصاغ منها ، نشير إلى ذلك ببضع النماذج الفذة في القرآن الكريم ، فالمفردة القرآنية تتسع دلالتها لما لاتتسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى ، وقد نجد قريبا من ذلك بعض اختيارات البشر في آدابهم من شعر ومن نثر *كالجاحظ* و*المتنبي* مثلا ، أما أن تجتمع كلها مطردة لا تختلف أو تشذ فذلك مالم يتوافر إلا في القرآن الكريم وحده.

---

(1) سورة هود الآية(117)

(2) المحاور الخمس للقرآن الكريم –*محمد الغزالي*– دار الهدى ، الجزائر ص84

(3) يراجع في هذا الشأن كتب الأصول وانظر على سبيل المثال كلام عبد *الوهاب* خلاف حول قوله تعالى {وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف} البقرة الآية(233) وكيف عدل الاه عن كلمة الوالد. يراجع كتاب أصول الفقه.

(4) أسرار البلاغة ص 125

والجاحظ نفسه كان يقف موقفين من اللفظ والمعنى أحدهما :

- أن اللفظ جزء من المعنى فهو سمة له وصورة تنعكس فيها أثاره وهذا صحيح في القرآن الكريم وسنثبت ذلك -بإذن الله- في سورة العصر.

- وموقفه الثاني يرى فيه أن اللفظ مستقلا عن المعنى ولا مزية له وهذا مـــا عـــدا القرآن والسنة النبوية قد يطرأ أحيانا كثيرة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

استعمال الشارد من الألفاظ :

حتى نستوفي هذه الفقرة بما تحتويه من عناصر فإنا نبدأ بهذه الخاصية والمتمثلة في استعمال القرآن الكريم للشارد من الألفاظ دونما تقعر أو تمحل ، وسنرى أن اللفظ يأتي متمكنا من موضعه ولن ينوب عنه غيره من الألفاظ المتداولة وسنمثل لذلك بهذه اللفظة.

في القرآن لفظة غريبة ، هي من أغرب مافيه ولا حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه ، وهي كلمة (ضيزى) من قوله تعالى {تلك إذن قسمة ضيزى}[1] ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه ، ولو أدرت اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها ، فإن السورة التي هي منها وهي سورة (النجم) مفصلة كلها على الألف ، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل ، ثم هي في معرض الإنكار على العرب إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد ، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله واختاروا لأنفسهم البنين فقال تعالى {ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذن قسمة ضيزى}[2] ، فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملائمة لغرابة هذه القسمة الجائرة التي أنكرها الله ، وكانت الجملة كلها كأنها تصور -في هيئة النطق بها- الإنكار في الأولى والتهكم في الأخرى ، وحاول أن تنطق بالكلمة من مخارجها الصوتية وسترى بعينك ما أثبتنا ، وكأن هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل ووصفت حالة المتهكم في حالة إنكاره في إمالة اليد والرأس بهذين المدين فيها إلى الأسفل والأعلى ، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية ... وإن

---

(1) سورة النجم الآية(22)
(2) سورة النجم الآيات(21،22)

تعجب فاعجب لنظم هذه الكلمة الغريبة وإتلافها على ماقبلها ، فإذا هي مقطعان مد ثقيل ، والآخر مد خفيف ، وقد جاءت عقب غنتين في (إذن / وقسمة) ، وإحداهما خفيفة والأخرى ثقيلة متفشية ، فكأنهما بذلك ليست إلا مجاورة صوتية لتقطيع نغمي بسورة النجم ، وهذا رابع للثلاثة التي عددناها آنفا ، فأما خامس هذه المعاني فهو أن الكلمة التي جمعت المعاني الأربعة على غرابتها ، إنما هي أربعة أحرف أيضا[1].

هناك لفظ آخر جاءت بنيته اللفظية مشحونة بالقيمة الدلالية التي يوعزها الجانب الصوتي ولكن يصف حالة نفسية ، إنها حالة الجبان المتقاعس في قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض}[2].

وادرس الأداء الفني الذي قامت عليه وجاءت به لفظة (اثاقلتم) بكل ما تكونت به من حروف ومن صورة ترتيب هذه الحروف ، ومن حركة التشديد على الحرف اللثوي " الثاء" والمد بعده ، ثم مجيء القاف الذي هو أحد حروف القلقلة ، ثم التاء المهموسة ثم الياء ، ألا تجد نظام الحروف مصدرة أداء الكلمة ذاتها ، وأوحت إليك بالمعنى قبل أن يرد إليك المعنى من جهة المعاجم ، وكأن التمادي في التلفظ بالكلمة ذاتها يوحي بالصورة على أتم وجهها[3].

فتقل الكلمة على اللسان ، وهذا المد الذي يليها بست حركات يصف حالة ذلك الكسول الخمول الذي أعجزه الخوف والجبن حتى عجز عن الوقوف ، وكأنه يزن آلاف الأطنان وكل هذه الأوصاف التي أخذت منا حوالي ثلاثين لفظا تحصرها هذه اللفظة (اثاقلتم).

---

(1) يراجع في هذا الجانب إعجاز القرآن الكريم للرافعي.

(2) سورة الآية(38)

(3) ثم لاحظ المد الذي يلي الميم بست حركات ثم إلى ثم الأرض وكأن الخطاب بلغهم واقفين وصارت الأرض تجذبهم نحوها خوفا ورعبا.

وهناك مفردات من نوع آخر ترسم صورة الموضوع لا بجرسه المسيقي بل بلفظه الذي يلقيه الخيال فللألفاظ كما للعبارات ظلال خاصه يلحظها الحس البصير حيث ما يوجه إليها إنتباهه ، وحينما تستدعي صورة محسوسة تتفق لها الدلالة من جهة المبنى ومن جهة المعنى.

وهذا التصوير بالألفاظ شيمة العرب قديما وحديثا ، نذكر على سبيل المثال قولا *لعبد الله بن الزبير* يذكر غريما له قد ألح عليه :

عرضت على زيد ليأخذ بعض ما ... يحاوله قبل اعتراض الشواغل
فدب دبيب البغل يألم ظهره ... وقال تعلم أنني غير فاعل
تثاءب حتى قلت داسع نفسه[1] ... وأخرج أنيابا له كالمعاول

فأنظر كيف جعل من شدة التثاؤب كأنه داسع نفسه ، أي لفضها من جوفه ، كما يدسع البعير جرته ، وكيف جعل من انحنائه وهو يتثاءب كأنه بغل يألم ظهره فلفظتي (**داسع ويألم**) صورتا المعنى أضعاف ما تصوره كثرة التشبيهات. والقرآن الكريم غني بذلك ، بل الأداة المفضلة عنده هي التصوير ، كما يقول ذلك *سيد قطب* -رحمه الله-

وهناك هيئة أخرى تصورها لفظة أخرى في موضع آخر ، إنها هيئة الحذر ، قال تعالى حكاية عن موسى ﴿فأصبح في المدينة خائفا يترقب﴾[2] ، فلفظة خائف شرحت المعنى وكان شرحها كافيا والمعنى بها تم ، غير أن لفظة يترقب ترسم هيئة الحذر الخائف الملتفت في المدينة التي يشيع فيها الأمن والإطمئنان في العادة حالة طوارئ تخوف وخوف يترصده في كل زاوية من زوايا المدينة وكل إنسان يراه ، يظنه موسى أنه يريد القبض عليه أو الوشاية به ، كل هذا الكلام وزيادة استوفته هذه اللفظة.

وكأن هذه الفتحات المتتاليات خطوات متثاقلات يخطوها موسى -عليه السلام- وهو يلتفت من حين إلى حين (يـــ ....تـــ.... ر ...قـــ.... بـــ).

---

(1) داسع : دسع ، يدسع ، قاء ملء الفم ، ودسع بقيئه رمى به.
(2) سورة القصص الآية (18)

اللفظة الواحدة تمثل محورا للسورة :

سبق الحديث عن الألفاظ وأهميتها في إضفاء ضلالها على المعنى ضمن الآية الواحدة ، أو المقطع الواحد ، وهناك ألفاظ إصطلاحية تشكل لونا خاصا داخل السورة الواحدة ، ومحورا تدور حوله باقي الموضوعات ، فيصبح بذلك وحدة تتردد وتتعدد خلال طيات السورة كلها.

فسورة العصر(*) {والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر}(1) ، تمثل فيها لفظة العصر وحدة زمنية تتكرر بتكرر المعاني التي ترشد إليها السورة ، يقول *عادل القليقلي* : "إن الزمان هو المعنى الذي يسري في هذه السورة" (2).

أ - ويتضح من ذلك أن الإنسان عبارة عن وحدة زمنية يتصرف فيها هو نفسه.

ب- أن أي خسارة أوربح لهذا الإنسان إنما تكون ضمن فترة زمنية كباقي المعاملات التجارية التي تخضع عقودها لآجال محددة.

ج - الزمان يكون في الإيمان فقد قال الله تعالى عن الإيمان في سورة ابراهيم {ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها}(3). وجملة كل حين ، زمان.

د - الزمان يكون في عمل الصالحات:

فعن الصلاة قال الله تعالى {....إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا}(4).

وعن الزكاة قال الله تعالى {...كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده}(5).

(*) جاء في تفسير ابن كثير أن العصر هو الزمان وقال مالك عن زيد بن أسلم هو العصر يقصد الصلاة وللمزيد تراجع كتب التفاسير.

(1) سورة العصر

(2) كشوف جديدة في إعجاز القرآن الكريم –*عادل القليقلي*– الشهاب الطبعة الثانية ص21

(3) سورة ابراهيم الآية(24)

(4) سورة النساء الآية(102)

(5) سورة الأنعام الآية(142)

وعن الحج قال تعالى {الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج}[1].

وقال عن الصيام {شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن}[2].

وهكذا كل شيء إلا وله علاقة بالزمان ، قال الله تعالى {إنا كل شيء خلقناه بقدر}[3].

هذه هي الهندسة الإلهية لسورة العصر وكما جرى عليها عنصر الزمان ، جرى على سور أخرى عناصر أخرى كالحفظ في سورة طارق والأمن في سورة قريش ، وهكذا باقي القرآن الكريم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) سورة البقرة الآية(197)
(2) سورة البقرة الآية(195)
(3) سورة القمر الآية(49)

التفنن في الألفاظ :

كثيرا ما تتكرر بعض الألفاظ والعبارات لا لمحض التكرار ولكن تساق سياقا خاصا يقتضيه المقام يقول الله تعالى في سورة الحج {ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد}(1).

سكارى وماهم بسكارى ، هذا المقطع من العبارة فيه تفنن قصد منه تحريك المخيلة وإثارة الوجدان ليتسع لها الأفق الذهني ، فيتشخص اليوم المهول بزلزلته ويعكس أمام بصيرته حقيقة الساعة ، التي تضع فيها الحامل حملها وتشرد المرضعة عما أرضعت ، وكلهم في حال سكر ، كما أنها تفيد حركة متوهجة ، ...سكارى...وما هم بسكارى....ولكن عذاب الله شديد ، (وترى الناس سكارى) ، يحمل معنى السكر وأن الناس مغشي عليهم ، ثم يعقبها قوله تعالى (وما هم بسكارى) ، تحمل سورة عكسية وكأنها تناقض الأولى فتحتار النفس وتتأمل وتتدبر ، ثم يأتي التعقيب موضحا (ولكن عذاب الله شديد) ، يقول الإمام *الزمخشري* وتراهم سكارى على التشبيه وما هم بسكارى على التحقيق.

أما من جانبها الصوتي الأدائي (سكارى) (وما هم بسكارى) فإنها توحي بجرسها الخافت عن ذلك المخبر الذي هاله الأمر وأفجعه الخبر فاستعمل أبسط الحروف وأخفها حتى تلفظ ببساطة وتنتهي بتلك الألف التي تمتد معها النفس(را).

وهذه الحالة من التفنن ليست الغريبة الوحيدة ، بل كل مقام في القرآن الكريم ، يقتضي مثل هذه الإستعمالات إلا وجاء على أتم السواء والتوكن من توضيح المراد لفظا واتساقا وجرسا.

---

(1) سورة الحج الآيات(1،2)

تمكن الحرف من تقوية الكلمة :

في كثير من الألفاظ ما يكون اللفظ قاصرا عن تأدية المعنى كاملا مالم يزود ببعض الحروف تقويه وتجعل المعنى به متمكنا من أداء وظيفته البلاغية ، مثال ذلك قوله تعالى {وقال الملك إيتوني به أستخلصه لنفسي}[1].

فالسين والتاء في (أستخلصه) للمبالغه ومثلها في استجاب ، واستأجر والمعنى أجعله خالصا لنفسي ، خاصا بي لا يشاركني فيه أحد ، وهذا كناية عن شدة إتصاله به والعمل معه[2].

ولنا أن نمثل بمثال آخر ، بضمير منفصل يؤدي نفس الغرض الذي أداه الحرفان (س/ت) وهو قوله تعالى {وعلامات وبالنجم هم يهتدون}[3] ، فإن قلت هذا مخرج عن سنن الخطاب مقدم فيه النجم مقحم فيه (هم) كأنه قيل : وبالنجم خصوصا هؤلاء ، خصوصا يهتدون ، فإن قلت من المراد بهم ؟ قلت كأنه أراد قريشا ، فلقد كان لهم اهتداء بالنجم في مسايرهم وكان لهم علم لم يكن مثله لغيرهم ، فكان الشكر أوجب عليهم والإعتبار ألزم لهم خصوصا[4].

وهكذا تكون العبارة أو اللفظة في القرآن الكريم ، بتقديمها أوبتأخيرها بإطنابها أو بإيجازها ، غرضا فنيا ودينيا متلازمين ، تقتضيهما طبيعة المخاطب وفي ذلك عبرة للأولي الألباب.

---

(1) سورة يوسف الآية(54)
(2) التحرير والتنوير –طاهر بن عاشور– ج3 ، ص7
(3) سورة النحل الآية(16)
(4) الكشاف –الزمخشري– ص 455

الفاصلة القرآنية عنوان للجملة:

هناك ألفاظ قرآنية نحسبها مترادفة ، تغني الواحدة عن الأخرى أماإذا تمعنا جيدا فإن للألفاظ مواقع ثابتة لا تحيد عنها ، فالفاصلة القرآنية كغيرها من المفردات تمثل عنوانا (للآية/الجملة) التي تسبقها وتكون هي بمثابة الخاتمة لها ، بل ربما هناك آيتين تعالجان قضية واحدة فإذا تغير السياق العام للموضوع ، أو الخاص بالجملة القرآنية فإن الفاصلة تتغير وإن كان في تقديرنا أنها تبقى واحدة ثابتة ، من ذلك الفرق في الفواصل بين يعلمون ويشعرون ، فالعلم خاص بالعقل عند الإنسان والشعور خاص بالحواس ، وتأمل قوله تعالى في بني إسرائيل {...ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون}[1] ، فالسفاهة مرجعها إلى العقل والعلم (يعلمون) مرجعها العقل كذلك ، وقال تعالى {...فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم...}[2] ، فتأمل كيف استعمل الله كلمة العلم وأنها دليل على العقل ، ثم تأمل كيف استعمل الله فاصلة أو لفظة أخرى هي لفظة الشعور في قوله تعالى {ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتا بل أحياء ولكن لا تشعرون}[3] ، والرؤيا لا ريب إحدى الحواس ، وقال الله عز وجل {واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب وأنتم لاتشعرون}[4] والعذاب مما يشعر به ويحس.

هذه نماذج للاقتداء لا للبسط ، إذ كل الفواصل القرآنية لها عناوينها الخاصة بل وتستحق دراسة معمقة.

---

(1) سورة البقرة الآية(12)
(2) سورة البقرة الاية(25)
(3) سورة البقرة الآية(153)
(4) سورة الزمر الآية(52)

المبحث الثالث

الفاصلة القرآنية عنوان للجملة:

هناك ألفاظ قرآنية نحسبها مترادفة ، تغني الواحدة عن الأخرى أماإذا تمعنا جيدا فإن للألفاظ مواقع ثابتة لا تحيد عنها ، فالفاصلة القرآنية كغيرها من المفردات تمثل عنوانا (للآية/الجملة) التي تسبقها وتكون هي بمثابة الخاتمة لها ، بل ربما هناك آيتين تعالجان قضية واحدة فإذا تغير السياق العام للموضوع ، أو الخاص بالجملة القرآنية فإن الفاصلة تتغير وإن كان في تقديرنا أنها تبقى واحدة ثابتة . من ذلك الفرق في الفواصل بين يعلمون ويشعرون ، فالعلم خاص بالعقل عند الإنسان والشعور خاص بالحواس ، وتأمل قوله تعالى في بني إسرائيل ﴿...ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾[1] ، فالسفاهة مرجعها إلى العقل والعلم (يعلمون) مرجعها العقل كذلك ، وقال تعالى ﴿...فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم...﴾[2] ، فتأمل كيف استعمل الله كلمة العلم وأنها دليل على العقل ، ثم تأمل كيف استعمل الله فاصلة أو لفظة أخرى هي لفظة الشعور في قوله تعالى ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتا بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾[3] ، والرؤيا لا ريب إحدى الحواس ، وقال الله عز وجل ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب وأنتم لاتشعرون﴾[4] والعذاب مما يشعر به ويحس.

هذه نماذج للإقتداء لا للبسط ، إذ كل الفواصل القرآنية لها عناوينها الخاصة بل وتستحق دراسة معمقة.

---

(1) سورة البقرة الآية(12)
(2) سورة البقرة الاية(25)
(3) سورة البقرة الآية(153)
(4) سورة الزمر الآية(52)

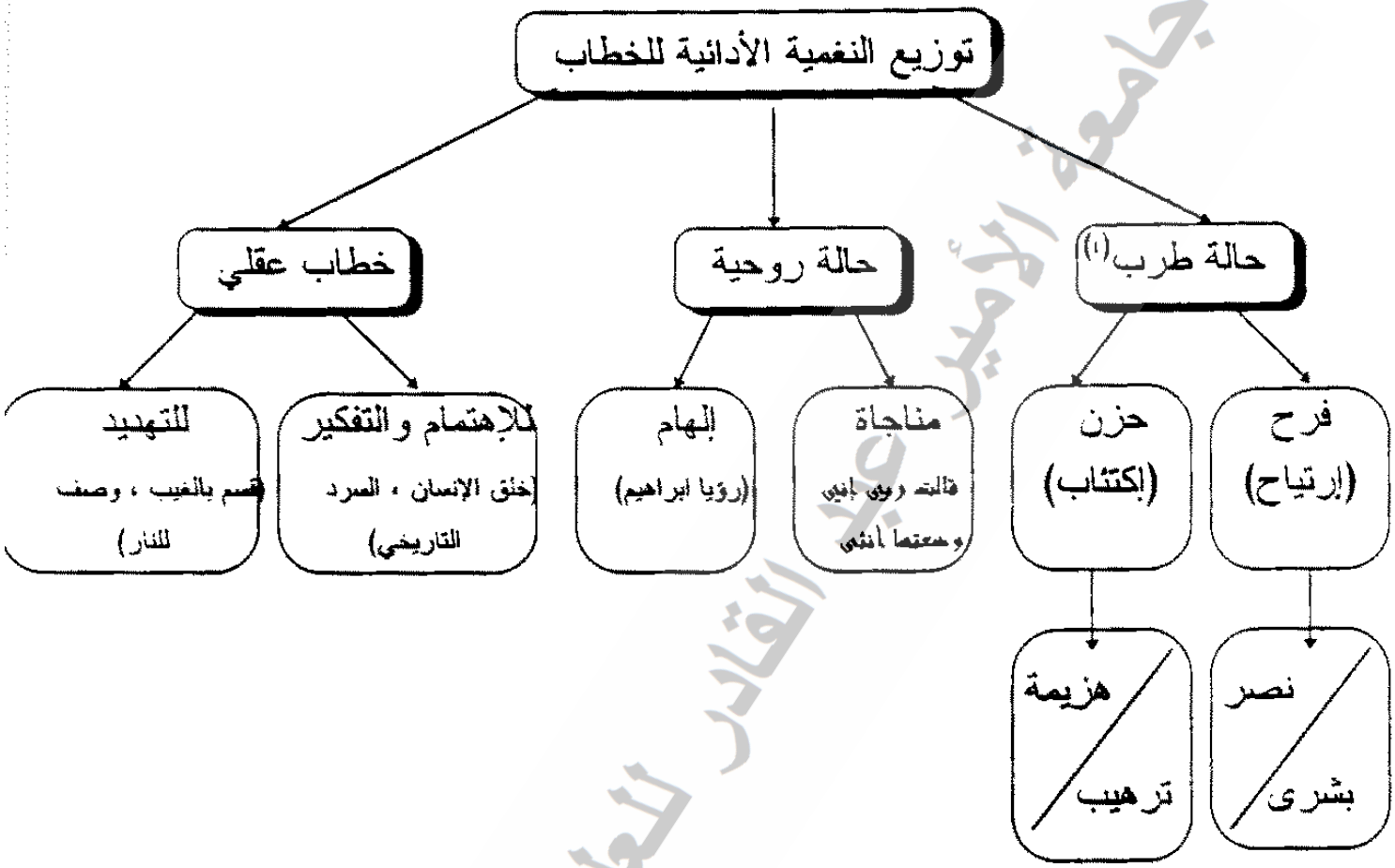

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

(1) يقول *ابن قتيبة* " إن الطرب هو خفة وإهتزاز يصيب الإنسان حالة الفرح او الحزن على حد سواء"

وعلى صعيد حرفي (فونيمي) فإن الإيقاعية في القرآن الكريم تتراوح حسب هذه المقتضيات المبينة في الجدول والإهتمام بالجانب الصوتي أثر قديم ، فهو عند *الجاحظ* (بمنزلة الحبر الذي في القلم ، فكما أن الحبر مادة يظهر من خلالها الكلام المكتوب فكذلك الصوت مادة يظهر من خلالها الكلام الملفوظ ، الفرق الوحيد أن الصوت يتلاشى في الفضاء بخلاف المكتوب[1].

والإيقاعات القرآنية في مجملها تسترسل على وتيرة واحدة ن كما هو الشأن في سورة الضحى {والضحى والليل إذا سجى ماودعك ربك وما قلى ولا الآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهروأما بنعمة ربك فحدث}[2].

فتتميز الوحدات اللإيقاعية بين المنة على نبيه بالنعمة وبين طلب الشكر على ذلك والإمتثال برد الجميل ، التميز هنا ملحوظ ، وهذه إشارة تأسيسية ليس إلا ، نؤسس من خلالها جدارة هاته المواضيع بالإهتمام والدراسة ، وهذا التناسب جزء مهم في بحثنا هذا سنطرق الأن بعض النماذج منه على مستوى الجمل وعلى مستوى الألفاظ نبين من خلالها صحة ما ذهبنا إليه.

---

(1) النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ – محمد صغير بناني– المطبوعات الجامعية ص111

(2) سورة الضحى

للمزيد يراجع (أدبية الخطاب القرآني ، الباب الرابع الفصل الأول) –د. *سليمان عشراتي*– (مخطوط).

ا) تصاقب (*) الألفاظ لتصاقب المعاني: (أ)

أ – من ذلك قوله تعالى {ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا}[1] أي تزعجهم وتعنفهم وتقلقهم ، فهذا في معنى تهزهم هزا ، والهمزة (ء) أخت الهاء[2](هـ) ، فتقارب اللفظين لتقارب المعنيين وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء وهذا المعنى في النفوس أعظم في الهز فقد رأيت تصاقب اللفظين لتصاقب المعنيين ، والملاحظ هنا أن اللفظة المتكررة (تأز/هم/أزا) إيقاع قوي جدا ، يجعل القارئ يعرف معناها وقوتها دون اللجوء إلى المعاجم ، فالتقاء الهمزة والزاي يحدث هذه الرهبة في النفوس ومن أجل ذلك سميت أصوات الأشياء على قدر قوتها ، فالصوت الصادر عن الطائرة يسمى أزيزا وهو أشبه بهذه الحالة بخلاف الأصوات الأخرى التي تتراوح بين الضعف والقوة والجهر والهمس.

ب– واسمع قوله تعالى في نموذج آخر {والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس}[3] ألا تشم رائحة المعنى قوية جلية بتكرر هذه السينات (عس/عس /تنف/س) إنها تبعث في الخيال الفطري صورة للمعنى محسوسة ملموسة ، فإن رجعت إلى المعاجم وجدت *الفراء*[4] يقول : "أجمع المفسرون على أن معنى عسعس ، أدبر"[5].

لكن عسعس ، وإن كانت أدبر فهي إدبار ولكن بلطف ، وانسحاب لكنه انسحاب المتواضع ليحل محله آخر يتنفس وكأنهما عاملان يعملان بالمناوبة ، هذا على مستوى الطبيعة ، أما على النفس فكأني بإنسان داخل غرفة مظلمة يقصد النافذة ليتنفس من هول ذلك الظلام حتى ولو كانت وسائل التهوية متوفرة ، فناسب السياق الإنصراف بالعسعسة وقدوم الصبح بتنفس.

(*) صقب : قرب ، تصاقب : تقارب وهي بمعنى الدنو والتمكن.

(أ) للمزيد يراجع كتاب (القياس في النحو) –*لمنى الياس*– والخصائص –لابن جني–

(1) سورة مريم الآية(83)

(2) رابع الخفما شص

(3) سورة التكوير الآيات(17،18)

(4) الفراء : –أبو زكريا يحي الديلمي– (822/761) إمام لغوي الكوفة ، تلميذ للكسائي ومؤدب إبني المأمون توفي في طريقه إلى مكة ، من كتبه : معاني القرآن ، الحدود ،المقصور والممدود ، المذكر والمؤنث

(5) مختار الصحاح

2- **تصوير اللفظ على هيئة المعنى:**

تقول العرب : عز يعز ، إذا امتنع ، والممتنع فوق الصلب ، فقد يكون الشيء صلبا ولا يمتنع على كاسره ، ثم يقولون : عزه يعزه (بالرفع) إذا غلبه قال تعالى في قصة داوود عليه السلام {....وعزني في الخطاب}[1] والغلبة أقوى من الإمتناع.

وتامل قولهم : (حجر ، هواء) ، كيف وضعوا للمعنى الثقيل الشديد هذه الحروف الشديدة (ح.ج.ر) ووضعوا للمعنى الخفيف أخف الحروف (ه.و.ا.ء). ثم انظر إلى قوله تعالى {فصب عليهم ربك سوط عذاب}[2].

فالعذاب وإن كان شيئا غير ملموس فهو يصب وكأنه ماء. وقوله تعالى {يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه}[3] ، فلفظة كادح تشعر القارئ وكأنه يسارع ويطوي الزمان طيا ليصل إلى ربه رغبة أو رهبة.

وهذه الدراسة حول القرآن الكريم وإن كانت تمجيدا للقرآن الكريم فهو للعربية نفسها فإنها امتازت بهذه الخصائص ، ولهذا يطلق عليها في مثل هذه الحالات أنها شجاعة ، أما القرآن الكريم فكان له الجمال المطلق الذي لا يضاهيه جمال لأنه من رب العالمين ، وأما الكلام العربي من شعر ونثر فهو يتراوح بين الجمال المطلوب ومن ذلك موافقات القرآن الكريم لبعض كلام الصحابة رضوان الله عليهم ، كعمر بن الخطاب ، ودونه موافقة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لكلام الصحابي القائل عند رفعه من الركوع : " سمع الله لمن حمده ، حمدا كثيرا ، طيبا مباركا فيه " ومنه دون ذلك على مستويات مختلفة بين الجمال ، والوساطة والرداءة.

---

(1) سورة ص الآية(22)
(2) سورة الفجر الآية(13)
(3) سورة الإنشقاق الآية(06)

3- **مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث :**

كان *ابن جني* يؤكد في الخصائص " أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر عنها "[1].

ومن أمثلة ذلك قولهم (خضيم) و (قضيم) ، فالخضم لأكل الرطب ، والقضم لأكل الصلب اليابس نحو قضمت الدابة شعيرها ، ويقال (قد يدرك الخضم بالقضم) أي الرخاء بالشدة واللين بالشظف ، فقد اختاروا الخاء لرخاوتها للرطب ، والقاف لصلابتها لليابس ، حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث.

وقد أجاد *ابن القيم* -رحمه الله- الأخذ وأحسن في الإستدلال ، فقد ذكر أن حرف الخاء مثلا في قوله تعالى في وصف الجنة {فيهما عينان نضاختان}[2] يصور بغلظته وصوت جرسه قوة الماء وكثرته حتى كأنك تسمع صوت الماء (أخ أخ أخ) بصخب إذ (النضخ) أقوى من (النضح) فقد جعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف. وهكذا كل لفظ (قوي) يشبه هذاه اللفظة (ق/و/ي)

وكل لفظ (ضعيف أو هادئ) يشبه هذين اللفظين (ضعيف/هادئ) ، وهذا من مزايا العربية الخالدة ، إذ يتصور الإنسان كثيرا من المعاني ويدرك مراميها من خلال أصواتها قبل أشكالها ، ضخمة أو هزيلة ، قوية أو ضعيفة ، عملاقة أو قزمة وهكذا يتشكل من الحروف اللفظ المناسب.

فالحروف تختلف قوتا وضعفا ، وتتباين في جرسها ورنتها وينتج من ذلك اختلاف الكلمات التي تتكون منها في وقعها على السمع وفي منزلتها في أداء المعنى وفي إشاراتها لانفعالات خاصة وألوان من الإحساس ، وكل ذلك يؤثر في الإبانة.

---

(1) الخصائص -ابن جني- م /154/153

(2) سورة الرحمان الآية(66)

فالحروف اللينة الهادئة الجرس ، تبعث الارتياح ، والقوية تناسب مواقف الزجر والتعنيف ، في بلاغة القول وروعته ، وحسن أدائه ومطابقته لمقتضى الحال ، ونجد ذلك واضحا في الأسلوب المحكم المعجز للقرآن الكريم.

يقول *ابن القيم* –رحمه الله– : " ولقد مكثت برهة ، يرد على اللفظ ، لا أعلم موضعه ، فأجد معناه من قوة لفظه ، ومناسبة تلك الحروف لذلك المعنى ، ثم أكشفه فأجده كما فهمته أو قريبا منه" ثم يحكي ذلك لشيخه ابن تيمية ، فيجد ذلك من طبع *ابن تيمية* ، ثم يورد بعد ذلك فصلا عظيم النفع *لابن تيمية* فيقول : " إنهم في الغالب ما يجعلون الضمة التي هي أقوى الحركات للمعنى الأقوى ، والفتحة الخفيفة للمعنى الخفيف والمتوسطة أي الكسر للمعنى المتوسط " كما بينا في (عز ، يعز).

---

(1) الخصائص ص 155

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تناسب الحروف المتماثلة في القرآن الكريم :

التنافر في الحروف ، السبب فيه هو ما ذكر الخليل ، وهو البعد الشديد في المخرج ، أو القرب الشديد فيه وذلك أنه إذابعد االبعدالشديد كان بمنزلة الطفر ، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشي المقيد. وينحاز ابن جني إلى جانب القرب الشديد وأنه سبب الثقل والتنافر.

وقال *ابن سنان* (ت 466 هـ) ، معقبا على رأي *ابن جني* : " إن الحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر ولا شك أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة ، ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة "

وجعل *ابن الأثير* حاسة السمع هي وحدها الحاكمة في هذا المقام[1].

ثم بعد هذا ألا يوجد في القرآن ألفاظ وعبارات تحمل حروفها صفة التنافر والتقارب في المخارج ، وحتى بعض الألفاظ التي يمجها السمع العربي ، والذوق اللغوي السليم والطبع المستقيم.

أقول: قد تجتمع الحروف المتماثلة في الكلمة الواحدة في القرآن الكريم وهو ما يقتضي التعسر في النطق أو الثقل في اللفظ ، بحسب مقاييس البشر ، غير أن القرآن الكريم ليس كغيره من الكلام ، فتأتي الكلمة ، واللفظة وهي تحمل صفات التنافر والثقل التي ذكرنا إلا أنها تأتي جميلة الرونق ، أنيقة التركيب ، رقيقة المسمع ، لا يصيبها في التأليف القرآني ما يصيبها في التأليف البشري ولا عجب ، فالواضع للحروف ، والمرتب للكلمات هو رب العالمين الحكيم الخبير ، فلا غرو أن يكون أنصع بيانا وأوضح نطقا وأيسر منطقا، ودليل ذلك مايلي :

---

(1) انظر الخصائص لابن جني ج1 ، الفوائد لابن القيم ، إعجاز القرآن للرافعي

تأمل إلتقاء حرفي (الحاء) بدون فاصل بينهما أوحاجز يخفف من ثقل التكرار ، وتنافر المماثلة في قوله تعالى ﴿ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله﴾[1]

﴿ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا﴾[2]

﴿ومن اليل فسبحه وإدبار النجوم﴾[3]

﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا ﴾[4]

فمع إلتقاء الحروف المتماثلة ، وتكرار الأصوات المتقاربة ، لم نشعر بمرارة أو نحس بمس البرودة ، وحاشا ذلك في كتاب الله تعالى ، بل نجد المعاني الوديعة والنظم الرقيق ، الذي علا قدره في البلاغة وأقر له أصحاب الفطر السليمة ، والسلائق المستقيمة بالحسن واللطافة ، ثم نجد قول *أبي تمام* في المدح :

كريم متى أمدحه أمدحه الورى معي وحتى إن لمته لمته وحدي

فإن مجرد إلتقاء حرفين من مخرجين متقاربين وهما (ح ، هـ) في (أمدحه) عده أصحاب الأذواق(*) متعسرا ، خارجا عن الإعتدال(**).

ثم تأمل إلتقاء (الكاف) بدون فاصل أو حاجز يخفف من أثر المماثلة كقوله تعالى ﴿ما سلككم في سقر﴾ [5]

﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله....﴾[6]

﴿...كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا﴾[7].

---

(1) سورة البقرة الآية (235)
(2) سورة الإنسان الآية (26)
(3) سورة ق الآية (40)
(4) سورة الكهف الآية (59)
(5) سورة المدثر الآية (23)
(6) سورة البقرة الآية (200)
(7) سورة طه الآية (33)

وقد تكررت القاف في كلمة وفي كلمتين مثل قوله تعالى ﴿ومن يشاقق الرسول﴾[1].

﴿يوم تشقق السماء بالغمام﴾[2].

﴿وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك﴾[3]

واقرأ مثلا قول *المتنبي* :

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا قلاقل عيس كلهن قلاقل

وكذلك قول الشاعر وايراده هذه الراءات والقافات:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

الحروف النفسية : وقد اجتمعت في آية واحدة من القرآن الكريم ستة عشر ميما من قوله تعالى ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾[4].

ففي (أمم ممن معك) ثمان ميمات متواليات ، والأصل " أمم من من معك ، فقلب تنوين (أمم) ميما ، فهذه ثلاث ميمات ، ثم قلبت نون (من) ميما ، فهذه خمس ميمات ، ثم قلبت نون (من) ميما ، فهذه سبع ميمات ، والميم الثامنة ميم (معك) وقلب النون ميما واجتماع هذه الميمات متفق عليه من جميع القرآء ، قراء المتواتر والشواذ ، ولم يقرأ أحد بغير ذلك ولقد علل لذلك أحد العلماء فقال: "وقد أرجع ذلك لعلة نفسية ".

---

(1) سورة النساء الآية (115)
(2) سورة الفرقان الآية (25)
(3) سورة الأعراف الآية (143)
(4) سورة هود الآية (48)

الباب الثالث :

دراسة تطبيقية

المبحث الأول :

المبحث الثاني :

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والميم وحده حرف ثقيل مضغوط ، يشد عضلات الفم كلها حتى يؤدي على هيئة صوت فكيف به إذا تكرر؟ ثم كيف يكون ميزانه من الثقل حتى يتكرر بهذه الكثرة المتلاحقة ؟

وليس هذا النغم المجلجل المتتابع من هذه الميمات إلا أداء لما يقتضيه المقام من دواعي القوة التي تحيط بالموقف وتظاهره.

فهذا نوح عليه السلام ، قد طوفت به السفينة وبمن معه في مجاهل هذا الطوفان المروع العاتي الذي أتى على كل شيء ، حتى أذن الله لهذ ه الغمة ان تنجلي ، وتصل السفينة إلى شاطئ الأمان والسلام وتلك المشاعر المتغيرة والأهداف المتعددة كانت تشابه في شدتها تتابع هذه الميمات وتظاهرها في مكان واحد فما كانت هذه الميمات إلا مراعاة لما يقتضيه الحال من دواعي القوة التي تحيط بهذا الموقف ، وإذا تأملنا قوله تعالى ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين﴾[1].

هذه الآية جمعت أحد عشر قافا ، ولو أن هذه القافات نثرت في كلام أضعاف هذه الآية لما احتمله ولناء به ، حيث أن القاف من أثقل الحروف نطقا ، إذ أنها تستدعي جهاز الكلام كله ، لكنها جاءت في هذا النظم الكريم فوقعت موقعا متمكنا لا قلق فيه ولا إضطراب.

وهذا الموقف موقف مشادة وأخذ ورد ، وكأنها العصي تقرع أو السيوف تتناقر وتتوالى القافات توالي هذه التاءات كي تجعل الموقف ساخنا قويا لا فتور فيه ، كيف وقد انتهى بمقتل أخيه وأصبح من النادمين.

( ) من الأسرار ص 37

(1) سورة المائدة الآية (29)

المبحث الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحآقة(1)ما الحآقة(2) وما أدراك ما الحآقة(3)كذبت ثمود وعاد بالقارعة(4)فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية(5)وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية(6)سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية(7)فهل ترى لهم من باقية(8)وجاء فرعون ومن قبله والمتفكات بالخاطئة(9)فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية(10)إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية(11)لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية(12)فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة(13)وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة(14)فيومئذ وقعت الواقعة(15)وانشقت السماء فهي يومئذ واهية(16)والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية(17)يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية(18)فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه(19)إني ظننت أني ملاق حسابيه(20) فهو في عيشة راضية(21)في جنة عالية(22)قطوفها دانية(23)كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية(24)وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول ياليتني لم أوت كتابية(25) ولم أدر ما حسابيه(26) ياليتها كانت القاضية(27)ما أغنى عني ماليه(28)هلك عني سلطانيه(29)خذوه فغلوه(30)ثم الجحيم صلوه(31)ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه(32)إنه كان لا يؤمن بالله العظيم(33)ولا يحض على طعام المسكين(34)فليس له اليوم هاهنا حميم(35)ولا طعام إلا من غسلين(36)لا يأكله إلا الخاطئون(37)فلا أقسم بما تبصرون(38)وما لاتبصرون(39)إنه لقول رسول كريم(40)وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون(41)ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون(42)تنزيل من رب العالمين(43)ولو تقول علينا بعض الأقاويل(44)لأخذنا منه باليمين(45)ثم لقطعنا منه الوتين(46)فما منكم من أحد عنه حاجزين(47)وإنه لتذكرة للمتقين(48)وإنا لنعلم أن منكم مكذبين(49)وإنه لحسرة على الكافرين(50)وإنه لحق اليقين(51)فسبح باسم ربك العظيم(52)

-صدق الله العظيم-

ونحن بصدد الحديث عن هذه السورة النموذجية (الحاقة) لكل ما سبق ذكره جدير بنا أن نلخص معاني السورة كاملة ، تفسيرا تحليليا ، كي تتضح معالم هذه النظرية خلال التطبيق من جهة ، وكي لا ننشغل بشرح الألفاظ والمعاني من جهة ثانية ، إذ وضوح المعاني يجعل تنسيقها وترتيبها -بمعنى تناسبها- واضحا وليس يكون ذلك كله بدون ذلك كله.

والتفاسير التحليلية والأدبية والاشارية أو الصوفية المعتدلة[1] ، كلها بتعانقها وتكاملها تكون موارد للسورة وقوالب يتضح من خلالها السياق العام لكل سورة على حدى.

---

(1) أسس الصوفيون تفسيرهم على أسس شرعية منها آيات من القرآن الكريم وأحاديث نبوية ومأثورات واردة عن بعض الصحابة والأئمة. من أدلتهم قوله تعالى (فمال هؤلاء لايكادون يفقهون حديثا) وفقه الحديث ليس المتبادر إلى الذهن ، وإنما هو المعنى العميق عندهم ، والحديث الذي رواه أبو الدرداء "لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يجعل للقرآن وجوها " ووجدوا دعامة قوية في الحديث الذي رواه البخاري لتفسير ابن عباس لسورة النصر أمام أشياخ بدر وتصديق عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- له ، مع أن تفسيره مخالف لظاهر النص. ومن هؤلاء وأقدمهم السهل التستري(330هـ) ينقل فيه أقوالا لجعفر الصادق ، وابن عطاء الله السكندري والفضيل ابن عياض ، ومنهم محي الدين بن عربي (560).

التفسير التحليلي لسورة الحاقة :

سورة الحاقة من السور المكية ، التي تعالج أمور العقيدة ، من توحيد وإيمان بالغيب والبعث والجزاء ، آياتها اثنتان وخمسون آية.

{الحاقة ماالحاقة وماأدراك ماالحاقة}[1].

أجمع المفسرون على أن المقصود بالحاقة هي القيامة ، لكن لما خصت هنا بهذه التسمية، فيه مسائل...(الحاقة):

أحدها ، أنها جاءت من لفظة "الحق" فالحاقة هي الساعة الواجبة الوقوع.

ثانيها ، أنها التي تحق فيها الأمور أي تعرف على الحقيقة.

ثالثها ، أنها ذوات الحواق من الأمور العظام من جزاء وعقاب.

رابعها ، وهو قول الليث (الحاقة) النازلة فلا كاذبة لها.

خامسها ، قال *الأزهري* : " والذي عندي في (الحاقة) أنها سميت بذلك لأنها تحق كل محاق في دين الله بالباطل أي تخاصم كل مخاصم وتغلبه ، من ذلك قولك: حاققته فحققته : أي غالبته فغلبته[2].

وهذه التعريفات كلها بإمكاننا الجمع بينها ،مع أننا تغاضينا عن غيرها التي تبلغ عشرة تعريفات ، فتكون كالتالي : الحاقة مشتقة من الحقيقة ، وبالتالي فهي اليوم الذي تحق فيه أمور الغيب كلها أمام المكذبين حتى يتأكدوا من صدقها ويطمئن المؤمنون إلى إيمانهم.

(الحاقة مرفوعة بالإبتداء وخبرها (ما الحاقة) ، وأصل الحاقة ما هي؟ أي ، أي شيء هي ؟ تفخيما لشأنها ، وتعظيما لهولها ، فوضع الظاهر موضع المضمر لأنه

---

(1) سورة الحاقة الآيات(1،2،3)

(2) يراجع فيها هذا كتب التفسير وعلى وجه الخصوص ، ابن كثير ، التفسير الكبير للفخر الرازي ، ج29 ص102

أهول ومثله قوله تعالى {القارعة ما القارعة}[1]

أما قوله (وما أدراك) ، وأي شيء أعلمك ، (ما الحاقة) أي لا علم لـــك بكنهـــها ومدى عظمتها (وما) في موضع الرفع على الإبتداء و(أدراك) معلق عنه لتضمنـــه معنى الإستفهام.

{كذبت ثمود وعاد بالقارعة}[2].

القارعة هي التي تقرع الناس بالإفزاع والأهوال[3].

{فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية}[4].

وهي الصيحة التي أسكتتهم والزلزلة التي أسكنتهم[5] ، وهو قـــول *قتـــادة وابـــن جرير*.

{وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية}[6].

أي باردة ، قال *قتادة والسدي والربيع بن أنـــس والثـــوري* (عاتيـــة) أي شديـــدة الهبوب[7] (صرصر) الشديدة الصوت لها صرصرة وقيل الباردة من الصر : كأنـــها التي كرر فيها البرد ، وأما العاتية فإن كان مصدرها من العتو الذي هو العصيـــان إستنادا إلى الحديث (طغى الماء على خزانه يوم نوح ، وعتت الريح على خزانها يوم عاد فلم يكن له عليها سبيل)[8].

وأما بمعنى العتو الذي هو بلوغ الشيء وانتهاؤه ، كقولنا عتـــا النبـــت ، إذا بلـــغ منتهاه وجف ومنه قوله تعالى {وقد بلغت من الكبر عتيا}[9].

{سخرها عليهم} سلطها وأقلعها وأرسلها عليهم.

---

(1) سورة القارعة الآيات(1،2)
(2) الحاقة الآية(4)
(3) التفسير الكبير للفخر الرازي ص103 ح29
(4) سورة الحاقة الآية(5)
(5) تفسير ابن كثير ج7 ص55
(6) سورة الحاقة الآية(6)
(7) تفسير ابن كثير ج7 ص55
(8) يراجع الفخر الرازي ، تفسير سورة الحاقة
(9) سورة مريم الآية(8)

{سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية}[1].

أي كوامل متتابعات مشائيم ، قال *ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة والثوري* وغيرهم : حسوما : متتابعات ، ومن ذلك سمي السيف حاسما ، لأنه يحسم العدو عما يريد.

ويدل على ذلك قوله في موضع آخر {في أيام نحسات}[2].

{فهل ترى لهم من باقية}[3] أي أهلكوا جميعا وبادوا على آخرهم.

المؤتفكات : وهم الأمم المكذبون بالرسول لوط -عليه السلام- وهي عدة قرى.

{إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية}[4] وهي السفينة التي تجري على وجه الماء.

{فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة}[5] هذه النفخة هي نفخة الصعق حين يصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله عز وجل.

{وانشقت السماء فهي يومئذ واهية}[6] أي تنشق السماء عن المجرة وقال ابن جريج هي كقوله تعالى {وفتحت السماء فكانت أبوابا}[7].

{والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم ثمانية}[8] أي ثمانية من الملائكة ، قال رسول الله ﷺ (أذن لي أن أحدثكم عن ملك من حملة العرش ، بعد ما بين شحمة أذنه وعنقه مخفق الطير سبعمائة عام) وهذا إسناد جيد ورجاله كلهم ثقات[9].

---

(1) سورة الحاقة الآية(7)
(2) سورة فصلت الآية(16)
(3) سورة الحاقة(8)
(4) سورة الحاقة الآية(11)
(5) سورة الحاقة الآية(13،14،15)
(6) سورة الحاقة الآية(16)
(7) سورة النبأ الآية(17)
(8) سورة الحاقة الآية(17)
(9) يراجع في هذا الشأن تفسير ابن كثير سورة الحاقة ص57

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

{فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه}[1]

أي "ها"..اقرءوا كتابيه و "ؤم" زائدة..وهي بمعنى "هاكم"

وفي الحديث الذي رواه *أبو حاتم* بسنده يقول : (المؤمن يعطى كتابه بيمينه في ستر من الله فيقرأ سيئاته ، فكلما قرأ سيئة تغير لونه حتى يمر بحسناته فيقرأها فيرجع إليه لونه ، ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات ، قال فعند ذلك يقول : هاؤم اقرءوا كتابيه)[2].

وهاء ، وهاؤموا وهاؤم لغات كما حكى ذلك سيبويه(*) في الكتاب.

{إني ظننت أني ملاق حسابية}[3] وهنا وصف للمومنين في الدنيا كما وصفهم الله بذلك في سورة البقرة بقوله عز من قائل {الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم}[4] أي ظنه كان موقنا في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة.

{فهو في عيشة راضية في جنة عالية قطوفها دانية}[5] ، في عيشة راضية : أي مرضية ، ووصفت العيشة بأنها راضية من وجهين:

الأول : بمعنى أنها منسوبة إلى الرضى.

الثاني : وهو الذي ذكرناه ، أنه جعل الرضا للعيشة مجازا مع أنه صاحب المعيشة.

ثم إن كلمة –راضية– حاوية لمجموعة من الشروط المعيشية ككونها خالية من الشوائب ولا تنفذ وانها مقرونة بالتعظيم بخلاف رضا نفس صاحبها عند قولنا (مرضية)

---

(1) سورة الحاقة الآية(19)

(2) حديث هاشم ، عن بشر بن مطر الواسطي عن يزيد بن هارون ، عن عاصم الأحول عن أبي عثمان –كما أورده ابن كثير في تفسيره–

(*) سيبويه : أبو بشر عمرو بن عثمان توفي نحو 796 ، نحوي ولد في البيضاءقرب شيراز، ونشأ في البصرة ، تعلم على الخليل ، إمام مذهب البصريين ، وكتابه المشهور في النحو (الكتاب) ، شرحه ابن السراج ، والمبرهان والسيرافي والرماني.

(3) سورة الحاقة الآية(20)

(4) سورة البقرة الآية(46)

(5) سورة الحاقة الآيات(21،22،23)

(قطوفها دانية) : أي ثمارها قريبة التناول ، يأخذ الرجل كما يريد ، قائما كان أو جالسا أو مضطجعا ، وإن أحب أن تدنوا إلى فيه دنت ،والقطوف جمع قطف وهو المقطوف[1].

{كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية}[2].

(ماأسلفتم) : معنى الإسلاف في اللغة تقديم ما ترجو أن يعود عليك بخير، والمعنى بما قدمتم من الأعمال الصالحة.

والأيام الخالية : المراد منها أيام الدنيا الماضية ومنه قوله تعالى {وقد خلت القرون من قبلي}[3] ، وقوله (تلك أمة قد خلت)[4].

وقال *الكلبي* (بما أسلفتم) : يعني الصوم ، وذلك أنهم لما أمروا بالأكل والشرب ، دل ذلك على أنه لما امتنع في الدنيا عنه بالصوم طاعة لله عز وجل[5].

{وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول ياليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانية}[6] ، هذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطي أحدهم كتابه في العرصات بشماله ، فيقول هذا الكلام (ياليتني لم أوت كتابيه...) ، وقال *الضحاك* : "يعني موتة لا حياة بعدها وكان أبغض الأشياء في الدنيا "[7].

{هلك عني سلطانيه} لم يعد يدفع مالي ولا سلطاني ولا جاهي عذاب الله وبأسه.

{خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه}[8] أي

---

(1) يراجع التفسير الكبير للرازي
(2) سورة الحاقة الآية(24)
(3) سورة الأحقاف الآية(17)
(4) سورة البقرة(134)
(5) التفسير الكبير ج29 ص113
(6) سورة الحاقة الآيات(25،26،27،28،29)
(7) وفي ذلك يقول الشاعر:
وشر من الموت الذي إن لقيته تمنيت منه الموت والموت أعظم
(8) سورة الحاقة الآيات(30،31،32)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(ثم الجحيم صلوه) قال *المبرد*(*) : "أصليته النار إذا أوردته إياها ".

(ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه) ، يقال سلكه في الطريق ، وفي القيد معناه أدخلته ، وهو لغة القرآن قال الله تعالى {سلكناه في قلوب المجرمين}[1] قال *ابن عباس* تدخل السلسلة من دبره وتخرج من حلقه ، ثم يجمع بين ناصيته وقدميه.

{إنه كان لايؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين فليس له هاهنا حميم ولا طعام إلا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون}[2].

لا يومن بالله العظيم : إشارة إلى فساد العقل

ولا يحض على طعام المسكين : إشارة إلى فساد قوة العمل والتصرف.

وسنفصل ذلك قريبا ، بإذن الله ، فلا تعجل علي أخي القارئ ريثما ننتهي من هذه المرحلة المهمة.

(فليس له اليوم هاهنا حميم) : مصداقا لقوله تعالى {ولا يسأل حميم حميما}[3].

وقوله في سورة غافر {ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع}[4].

ولا طعام إلا من غسلين : هو ما يسيل من أهل النار من القيح والصديد والدم إذا عذبوا ، طعام لا يأكله إلا الخاطئون الآثمون.

{فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تومنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين}[5].

(*) أبو العباسالمبرد ، ولد نحو (826 ، 898) ، نحوي ، تلميذ المازني والسجستاني ، ممثل مذهب البصرة بالنحو ، وخصمه (ثعلب) ممثل مذهب الكوفة ، تعلم في بغداد ومن أهم مؤلفاته (الكامل في الأدب).

(1) سورة الشعراء الآية(200)

(2) سورة الحاقة الآيات(33،34،35،36،37)

(3) سورة المعارج الآية(10)

(4) سورة غافر الآية(18)

(5) سورة الحاقة الآيات(38،39،40،41،42،43)

ماتبصرون وما لا تبصرون : يعم جميع الأشياء على الشمول ، فشمل الخالق والخلق ، والدنيا والآخرة ، والأجسام والأرواح ، والإنس والجن ، والنعم الظاهرة والباطنة[1].

{ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين}[2].

ولو تقول : على البناء للمفعول ، فالتقول إفتعال القول ، لأن فيه تكلفا من المفتعل وسمى الأقوال المنقولة أقاويل تحقيرا لها ، وذلك كقولك الأعاجيب والأضاحيك.

وأما قوله تعالى {لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين} أي لانتقمنا منه جزاء ما فعل وهو تصوير رائع سنتطرق إليه لاحقا بإذن الله ، فصبرا.

{فما منكم من أحد عنه حاجزين}[3] أي ما يقدر أحد منكم على أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئا من ذلك.

{وإنه لتذكرة للمتقين وإنا لنعلم أن منكم مكذبين وإنه لحسرة على الكافرين وإنه لحق اليقين فسبح باسم ربك العظيم}[4].

وإنه لتذكرة للمتقين : أي القرآن الكريم ، كما قال تعالى {قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون ..... في آذانهم وقر وهو عليهم عمى}[5]

وإنه لحسرة على الكافرين ، قال *ابن جرير*(*): " إن التكذيب هو حسرة على الكافرين يوم القيامة ودليله {وإنا لنعلم أن منكم مكذبين} "

---

(1) يراجع التفسير الكبير للفخر الرازي ، تفسير المراعي في ظلال القرآن

(2) سورة الحاقة الآيات(44،45،46)

(3) سورة الحاقة الآية(47)

(4) سورة الحاقة الآيات(48،49،50،51،52) وهي نهاية السورة

(5) سورة فصلت الآية(44)

(*) الطبري ، هو أبو جعفر محمد بن جرير (ت 923/310م) مؤرخ ومفسر وفقيه *شافعي* ولد في آمل بطبرستان ، استوطن بغداد وتفي بها ، من كتبه المشهورة ° جامع البيان في تفسير القرآن ، وتاريخ الأمم والملوك ، اختلاف الفقهاء ، تهذيب الآثار وأداب القضاء)

كان هذا التفسير المبسط ، والمأخوذ من كتب التفسير، مع بعض الترجيح للأقوال وفيه زوال لبعض الغموض الذي يكتنف ذهن القارئ ، ثم إنه ييسر علينا -بتيسير من الله تعالى- الخوض في نشر هذه السورة المختارة للدراسة ، ثم تحليلها وتقسيمها حسب هذه النظرية التي انتهجناها وألزمنا أنفسنا بالتزامها ، أي سورة الحاقة.

وسورة الحاقة هذه ، كما أسلفنا ، قصيرة المقاطع ، ووثب المعاني فيها يتردد بين الطويل والقصير.

والملاحظ أن هذه الدراسة السابقة تعتبر بمثابة الشرط عند الأصوليين ، فحتى وإن كان لا يدخل في ماهية البحث رأسا إلا أنه يساهم في استجلاء المبحث نفسه ، وما أريد بهذا الكلام إلا دفع شبهة أن هذا خارج عن موضوع البحث ، وبعد هذا البسط سنتطرق ، بإذن الله إلى التطبيق المباشر حول التناسب داخل هذه السورة وحسن جوارها وعلاقة أسباب النزول بموضوعاتها.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني

سورة الحاقة واسطة العقد :

حسن المجاورة بين المعاني ، وحسن المجاورة بين السور ، وأن كل سورة لها علاقة أو علاقات عديدة مع غيرها من السور المجاورة لها ، هي مواضيع سبقت الإشارة إليها وتم تأكيدها ووجوب إلتزامها ، إذ تتالي السور ليس إعتباطيا ، بل له دلائل واضحة وأخرى غير واضحة ، كأن تكون متممة ، أو شارحة ، أو مفصلة أو مفرعة لبعضها البعض.

ونحن بصدد الحديث عن هذا الجانب مع سورة الحاقة ، وعلى بساط البحث ندرس أربع سور تجاور هذه السورة النموذجية ، سورة الملك وسورة القلم (او سورة نون) على الترتيب الموالي (67 ، 68) وسورتي المعارج و نوح على الترتيب التالي (70 ، 71) ، حيث تحتل الحاقة المرتبة (69) ، من القرآن الكريم لذلك أطلقنا عليها واسطة العقد ، إذ هي تشع على هذه السور جميعها وتجمع موضوعاتها كلها كما سترى بإذن الله عز وجل.

فما هي الموضوعات التي طرقتها سورة الملك وسورة القلم أولا ؟

في سورة الملك ، يمجد المولى تعالى نفسه ، ويخبر أن بيده الملك وأنه هو المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله ، ولهذا قال ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾[1] ، وبعد أن أخبر عن قدرته بهذه اللطافة قال ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور﴾[2] بين أن مصائر الناس بيده وحده ولا حاجة إلى تفصيلها.

---

(1) سورة الملك الآية(1)
(2) سورة الملك الآية(2)

وكيف وقد أجمل ذلك وبين أن الموت والحياة جاهزتين يتصرف فيهما كيفما شاء (الذي خلق الموت والحياة) وهما من الملك الذي بيده ، لا لشيء إلا ليبلو الإنسانية أيهموا أحسن عملا.

ثم يخبر عن عظمته في خلق السموات والأرض ويرشد إلى الإيمان عن طريق النظر {فارجع البصر هل ترى من فطور}[1].

ثم يخبر عن حال الكافرين بصيغة الماضي ، لإيفادة التحقيق والردع في آن واحد ثم يعيد الكرة بعد استعراض هذا المصير ، مصير الأشقياء ، ويعيد لفت الأنظار لا إلى السماء ، بل إلى الطير التي تحلق في السماء وهو بهذا يريد منهم أن يرفعوا رؤسهم إلى السماء لا أن يطأطئوها إلى الأصنام ، ولذلك قال {أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم}[2].

ثم يجيب عن تساؤلات المكذبين المتمردين القائلين ، {...متى هذا الوعد}[3] ، برفق وهدوء {قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين}[4]

ثم يعرض بشرية الرسول ﷺ في معرض التساوي مع غيره كونه ينتابه ما ينتابهم وما هو إلا نذير مبين.

ويتمادى هذا التلطف للتمكين من هذه العقيدة ، فيعرضها بمثال حي ، حياة البشرية ، فيقول {قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين}[5].

---

(1) سورة الملك الآية(3)
(2) سورة الملك الآية(22)
(3) سورة الملك الآية(25)
(4) سورة الملك الآية(26)
(5) سورة الملك الآية الأخيرة(30)

فإذا أجملنا معاني هذه السورة المكية بآياتها الثلاثين ، نجد آياتها تتتالى وتتوالى في استدراج رتيب تتخلله بعض الوخزات النفسية ، لهذه النفس كي تستشعر وجود خالقها وحاجتها إليه ، أما التعنيف الوحيد الذي تخلل هذه السورة هو الحديث عن الجن وعن مصير المكذبين وإن كان خطابا غليظا ، إلا أنه يحمل معنى الشفقة والرحمة فهو يحذر من أمر لم يقع بأسلوب الماضي وكأنه وقع (ألم يأتكم نذير؟؟)

إذا فمنتهى الخطاب كان العقيدة ، ودلالته التفكر في خلق الله تعالى ، وطريقته الإستدراج بلطف وبألفاظ جزلة وسهلة وهذا يدل على أنها نزلت قبل أن يشتد الإنكار وأنها نزلت قبل سورة الحاقة[1].

)))))

ثم ماذا عن السورة المجاورة الثانية ، وهي الجارة الجنب لا الصاحبة بالجنب (سورة الملك) ، سورة القلم هذه ، لا يمكن تحديد التاريخ الذي نزلت فيه ، وإن كان من المتفق عليه في ترتيب المصاحف ، أنها هي السورة الثانية ، ولكن سياق السورة وموضوعها يفيد أنها نزلت بعد فترة من الدعوة العامة ، بعد المدثر والمزمل وغيرها[2].

---

(1) يرى السيد قطب هذا الرأي ويتجه إليه ، فهو يقول عن سورة الملك : "...وبعض مطالع السور في هذا الجزء من بواكير ما نزل من القرآن ...كما يحتمل أن فيه سورا نزلت بعد حوالي ثلاث سنوات كسورة القلم (في ظلال القرآن ج6 ، ص3628

(2) يقول سيد قطب قريبا من هذا.. ج6 ، ص3650

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فماذا عالجت هذه السورة وكيف عالجت ؟

سورة نون ، سورة مكية ، تعالج أمر العقيدة ، لكن هذه المرة تبدو شراسة المكذبين ظاهرة ، وعداوتهم لهذا النبي متجلية ، وغضب الله تعالى جلي ... كيف وبعد أن عرضت العقيدة بتلك السماحة ، واللطافة والنظر في سورة العلق {إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم}[1].

وسورة الملك كما بينا وغيرها من بواكير السور المكية ..كيف وبعد هذا كله ، يوصف محمد الأمين ﷺ الذي كان مستودع الأمانات لديهم وقاضي النزاعات بينهم يوصف بالجنون.

إن سورة إهتمت في مطلعها بالتسرية على النبي الذي بهت. فكانت ألفاظها ألفاظ تسرية {ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجرا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم}[2] ، ثم بعد هذه الايات ترتفع قليلا حدة الخطاب ، إذ التحذير يستدعي ذلك {فستبصر ويبصرون بأييكم المفتون إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين}[3] -كيف وقد انزل سورا تقيد هذا كما بينا- {فلا تطع المكذبين ودوا لو تدهن فيدهنون}[4].

ويتعالى الصوت كما ترى ويعير المكذب بما نرى من أوصاف في السورة بأنه هماز ، نمام ، مناع للخير ، معتد ، أثيم ، ثم عتل زنيم ، ثم يخبر عن مصيره في الدنيا قبل الآخرة {سنسمه على الخرطوم}[5].

---

(1) سورة العلق الآيات(3،4،5)
(2) سورة القلم الآيات(1،2،3،4)
(3) سورة القلم الآيات(5،6،7)
(4) سورة القلم الآيات(8،9)
(5) سورة القلم الآية(16)

وبعد هذا يعرض الله سبحانه قصة مطولة ، إنها قصة أصحاب الجنة وكونهم استدرجوا بجنتهم ومنعوا زكاتها فحاق بهم بطائف من ربهم مايحيق بالمكذب (سنسمه على الخرطوم) ، وكأن الملك الذي أمر أن يجعل تلك الجنة كالصريم هو الذي جذع أنف المكذب فسامه على الخرطوم[1].

وبعد سرد هذه القصة يحاجج الله المكذبين بتلك الأسئلة الملحة (أم لكم ، أم لكم أم لكم ؟؟ سلهم أيهم بذلك زعيم) ، وعند عدم الإجابة -ولا إجابة- عود على عقب إنها التسرية على من يحمل كل هذه الهموم ، ويسمع عن نفسه بأنه مجنون ، وأنه ساحر وأنه كذاب ، إنها التسرية على الرسول ﷺ {فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم}[2].

فإذا أجملنا كذلك هذه السورة المكية بآياتها الإثنين والخمسين وهو نفس عدد آيات سورة الحاقة ، نجد أن أسلوبها وموضوعها تقاسمه طرفان:

* أولها التسرية على النبي ﷺ والتعنيف على المكذبين ، وكان توزيعه كالتالي:

- التسرية على النبي ﷺ بأسلوب هادئ ومحذر من الإنسياغ إلى تصديق ما يقولون بأنه جنون ، وما هو إلا وحي يوحى ، وأنه كامل الأخلاق ، عظيم الشأن لاينبغي منه الكذب. ثم أسلوب يحذر فيه طاعة المكذبين ويعيرهم بأسلوب صلب وجرس قوي متتالي تتخلله قصة للعبرة والعظة خففت من وطأة هذه الشدة في التعنيف ليستأنف بعدها مع المحاجة والمناظرة.

* ثانيها تسرية أخرى ختامية وتحذيرية من قولهم الأول أنه مجنون وهو تطابق الختام مع حسن الإستهلال كما رأينا في سورة ق.

---

(1) المقصود من السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومي ، أحد رؤساء قريش لعنه الله ، وهو القائل عند سماعه القرءن الكريم : " والله ماهو بشعر ولا بسحر ولا بهذي من الجنون وإن قوله لمن كلام الله " ، فلما راجعه قومه وصدوه عن ذلك قال : " إن هو إلا سحر يؤثر " ونزل فيه كذلك قوله تعالى (ذرني ومن خلقت وحيدا) في سورة المدثر.
وقد يكون الأخنس بن شريف ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(2) سورة القلم اللآية(48).

هذه سورة القلم وسورة تبارك ، عالجتا قصة واحدة ، في مرحلتين زمنيتين أولها عند تلقين هذه العقيدة فكانت بلطف ، وثانيها بعد بداية التكذيب والطعن في شخص الرسول نفسه ، فاستحقت قوة في الأسلوب ، وقوة في الجرسية والإيقاعية.

فما تناسب هذه الجارتين من ناحية المضمون والسياق مع سورة الحاقة ياترى؟

يقول محمود *شلتوت*[1]: "وجهت سورة الملك أنظار القوم إلى بعض ما في الكون من دلائل الوحدانية وآيات الحكمة والعلم والقدرة ، وكشفت سورة القلم عن نعمة الله على محمد ، وعن بطلان التهمة التي وجهها إليه القوم حقدا وغيظا ، وهي تهمة الجنون ، وحذرته أن يلين لهم ، أو أن يسارع إليه الغضب فيكون كأخيه يونس بن متى ، وضربت لهم الأمثال في عاقبة الإغترار بالأموال والبنين ، ولم يفتأ أن تعرض للتهديدات بالبعث ، ودار الجزاء".

ثم تجيء سورة الحاقة ، فتضع الحد الفاصل بين زعمهم وبين دعوة الرسول فيما يختص بالقيامة ، فتبدأ بتفخيمها وتعظيم شأنها[2]

وعلى هذا النسق نسجت سورة الحاقة ، بتلك الطريقة -التي سنفصلها- الفذة ، القوية ، فبعد أن قدمت سورة الملك دلائل الوحدانية بكل صفاء السماء المتلألئة {ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح....}[3] ، وقدمت على أبدع لوحات الجمال والطبيعة {أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن...}[4] بعد هذا جاء الإنذار والتحذير في سورة القلم {فلا تطع المكذبين ودوا لو تدهن فيدهنون}[5] ثم قوله {ذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين}[6].

---

(1) إلى القرآن الكريم -محمود شلتوت- دار الشروق ص145
(2) نفس المرجع السابق
(3) سورة الملك الآية(5)
(4) سورة الملك الآية(19)
(5) سورة القلم الآيات(8،9)
(6) سورة القلم الآيات(44،45)

فبعد هذا التبصير في الملك جاء الإنذار والتحذير في القلم لتستقل سورة الحاقة بعدهما متوعدة وشارحة لوعيدها بألفاظها الصلبة ونبراتها العالية ، وتكون بذلك بداية لمجموعة كاملة تعالج مثل هذه القضية.

وهذا الإستقلال في مجموعة كاملة يقول عنه المرحوم سيد حوى : " ترددت كثيرا في تحديد حدود المجموعة السادسة ، بدايتها ونهايتها ، فمن القديم كان مستقرا في حسي وقلبي أن سورة الحاقة بداية مجموعة...وبعد التأمل الطويل رجحت أن سورة الحاقة بداية مجموعة...ومن قبل قلنا أن المعاني هي التي لها الحكم النهائي ، وقدرأيت أن المعاني توصل إلى هذه النتيجة "[1].

والذي أردناه بربطها مع سابقاتها هو ما يمكن أن نطلق عليه حسن التخلص ، أو الجريان المستأنف الجديد ، ومثال ذلك ، كأن يكون رجل يؤدب رفيق ابنه ، يعظه ويشرح له مكارم الأخلاق ، وبعد مدة قليلة تتوافد إليه الأخبار أنه لعان بذاء ، فيستعمل معه غلظة وتحذيرا ، ويأمر ابنه بتجنبه وعدم طاعته {ودوا لو تدهن فيدهنون}[2] كما لاحظنا في سورة القلم ، ثم تأتي مرحلة ثالثة ، يتجرد فيها الوالد من كل تحفظ فيعلن تهديده وصرامته ، وحتى بعض الأخبار عن تصرفاته السابقة مع أمثال هذا الرفيق السوء {كذبت ثمود وعاد بالقارعة}[3] ، وهذا تشبيه كما نلاحظ بسورة الحاقة التي هي صفحة جديدة كما تصرف الوالد تصرفا جديدابعد نفاذ المرحلتين.

---

(1) الأساس في التفسير ج11 ص6102

(2) سورة القلم الآية (٩)

(3) سورة الحاقة الآية (٤)

بين يدي سورة الحاقة:

سبق ذكر حسن جوار هذه السورة مع سابقتيها ، وذكرنا أدلة ذلك ونثني هنا بقول آخر *للآلوسي* بين فيه وجه المناسبة بين سورة الحاقة وسورة نون يقول: "ولما وقع في نون ذكر يوم القيامة مجملا ، شرح سبحانه في هذه السورة الكريمة نبأ ذلك اليوم وشأنه العظيم ، وضمنه عز وجل ذكر أحوال أمم كذبوا الرسل عليهم السلام ، وما جرى عليهم ، ليزدجر المكذبون المعاصرون له عليه السلام"

وهذا ما يزيدنا يقينا ويشفع لنا في هذا الإتجاه . فمعالجة سورتي الملك و نون كانت بطريقة هادئة ورتيبة ، بخلاف سورة الحاقة التي كما يصفها صاحب الظلال "بأنها هائلة رهيبة قل أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة ، وهي منذ إفتتاحها إلى ختامها تقرع هذا الحس ، وتطالعه بالهول القاسم ، والجد الصارم ، والمشهد تلو المشهد ، كله إيقاع ملح على الحس ، بالهول آنا وبالجلال آنا ، وبالعذاب آنا ، وبالحركة القوية في كل آن"(1).

إن هذه السورة العظيمة المعنى ، القوية المبنى ، العجيبة الفحوى ، أقوى من كل إستعراض ، ومن كل تحليل ومن كل تعليق ، ولكنها جرأة البحار الباحث عن اللآلئ فإما وإما ، والله المعين.

سبق تعريف هذه السورة ، وأنها مكية وعدد آياتها (52) ، وأنها تعالج أمر البعث خاصة ، وسنعمد في تفسير هذه السورة بناء على ما أسلفنا في المباحث السابقة كالتالي :

1- حسن المجاورة مع السابق (وقد طرقناه)

2- دراسة موضوعية للسورة وتناسب فقراتها مع استصحاب:

---

(1) في ظلال القرآن ج6 ص3674

* الجانب البلاغي والأدبي
* الجانب الصوتي أو النغمي
* الجانب الإشاري أو الصوفي

3- حسن المجاورة مع اللاحق

يجدر بنا ونحن بصدد بيان مناسبات هذه السورة أن نكرر القاعدة العامة في ذلك والتي سبق أن طبقناها على سورة ق عند حديثنا عن الوحدة الموضوعية في المباحث السابقة وهذا نص القاعدة : "الأمر الكلي لمعرفة مناسبات الآيات في جميع القرآن الكريم ، أن ينظر إلى الغرض الذي سيقت له السورة ، ثم ينظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات ، ثم ينظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب ، كما ينظر عند إنجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام ، أو اللوازم التابعة له ، التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الإستشراف إلى الوقوف عليها"[1].

التطبيق :

1- هذه السورة كما يبين عنوانها ، تتحدث عن حتمية البعث وأنه حق.

2- المقدمات التي يحتاجها هذا الموضوع ويوظفها :

* أدلة القدرة على تحقيقها من خلال السياق
* أدلة تاريخية حققت مثلها (ثمود ، وعاد) تمثلت في البطش والدمار والوعيد
* ادلة تاريخية حققت مثلها (حملناكم في الجارية) تمثلت في النجاة والرحمةوالوعد
* دفع شبهة المكذبين وإثبات مصدرية القرآن الكريم لله تعالى.

---

(1) قواعد التفسير ج 2 ص 749

3- ترتيب هذه القواعد كان بنفس الترتيب (ا،ب،ج،د)
4- اللوازم التي انجر عليها الكلام عند ذكر تلك المقدمات

* تذكرة الرسول ﷺ خاصة ، والمومنون عامة بمصير المهلكين {فهل ترى لهم من باقية}[1].

* تذكير الناس جميعا بنعمة النجاة من الغرق بالطوفان {إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية}[2].

* التفريق بين الفائزين والخاسرين يوم ذاك {فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هآؤم اقرأوا كتابيه}[3] ، {وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول ياليتني لم أوت كتابيه}[4].

* تسلية الرسول والتسرية عليه {فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تومنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون}[5].

* ختام السورة بالتسبيح ، وكأنه استغفار عن تلك الأكاذيب التي تحدثت عنها السورة (شاعر كاهن ، تقول بعض الأقاويل) متمثلة في قوله تعالى {فسبح باسم ربك العظيم}

---

(1) سورة الحاقة الآية(8)
(2) سورة الحاقة الآيتين(11،12)
(3) سورة الحاقة الآية(12)
(4) سورة الحاقة الآية(25)
(5) سورة الحاقة الآيات(38،39،40،41،42)

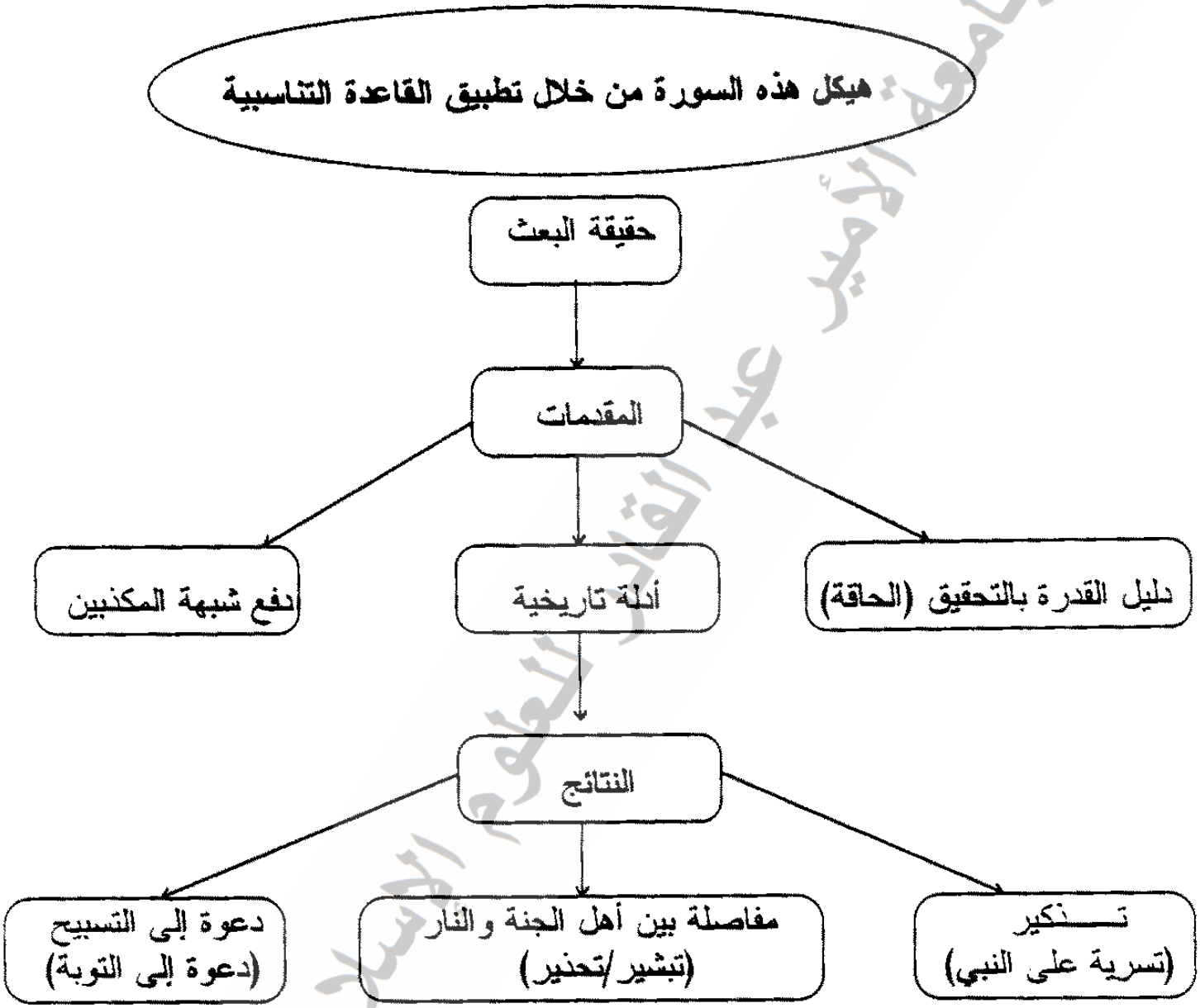

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أما موضوعات السورة فكانت كالتالي:

الفقرة الأولى :

من الآية(1) وحتى الآية(12) ، تأسيس لهذا المصطلح (الحاقة)

الفقرة الثانية :

من الآية(13) وحتى الآية(37) ، حديث عما يحدث فيها بغض النظر عن التصديق أو التكذيب

الفقرة الثالثة :

من الآية(38) وحتى الآية(52) ، إثبات مصدرية القرآن الكريم وأنه من الله.

كان هذا هو التقسيم ، بتلك المقدمات وتلك الوسائل وتلك النتائج ، لكن كيف تم ذلك وكيف تناسبت الموضوعات شكلا وترتيبا ومضمونا ؟

الفقرة الأولى:

المعنى الذي تتمخض السورة لإلقائه في الحس ، سيتكفل أسلوبه وإيقاعه ومشاهده وصوره وظلاله بإلقائه وتقريره وتعميقه بشكل مؤثر حي عجيب.

فأسلوب السورة كما يقول سيد قطب : " يحاصر الحس بالمشاهد الحية ، المتناهية ....بحيث لا يملك منها فكاكا ، ولا يتصور إلا أنها حية واقعة ، حاضرة ، تطالعه بحيويتها وقوتها وفاعليتها بصورة عجيبة)[1].

{الحآقة ما الحآقة وما أدراك ما الحاقة} ، كلام متكرر ينتابه تعريف وتجهيل وهو تكرار من جنس واحد وبعضه يجزء عن بعض ، وهو لإرادة التوكيد والإفهام والتفنن في المقام[2].

---

(1) في ظلال القرآن ج6 ، ص3675

(2) يراجع تأويل شكل القرآن ، ابن قتيبة ،دار التراب للقاهرة ص235/234

إن الرنة المدوية في الباء والهاء الساكتة بعدها ، سواء كانت تاء مربوطة يوقف عليها بالسكون ، أو هاء سكت مزيدة لتنسيق الإيقاع وتغير من موقف إلى آخر قوة وضعفا لها تناسبات خاصة ، على مستوى الجمال الفني وعلى مستوى الأفق النفسي. إنها مقاطع قصيرة ، تستدعي أن تكون الفقرات والعبارات بعدها كذلك قصيرة مثلها وتكون قوية ، مؤثرة وكذا ثقيلة ، لا ثقيلة الفهم ، ولكن ثقيلة الدفع وكذلك كان سياق السورة.

حتى لايجرنا الكلام بعيدا عن موضوعنا (التناسب) ، نبدأ من خلال نطق هذه الكلمة ، (الحاقة) ، مراد الله منها المساءلة (ما الحاقة) الإستفهام (وماأدراك ما الحاقة) الأمر بالتصديق والإعتذار عن عدم القدرة على تصورها.

وكل هذا للإعتناء.

فلماذا كان هذا اللفظ بالضبط ، في هذا الموضوع الحاسم ؟ ففضلا عن معنى الحاقة في المعاجم كما بينا في التفسير التحليلي لهذه السورة ، كيف ينطق هذا اللفظ وبماذا يوحي نطقه؟ حاء ، ومد بست حركات ثم قاف مقلقل ثم سكت مفاجيء ، وكأني بلافظها ، ينفض من جوفه غصة تسد مجراد يسقط بعدها ساكتا ، سكوت هذه الهاء (حآقه)

لهذا جاء بهذه الصفات الثلاثة : التعريف والسؤال والإعتذار.

ثم جاء بهذه الصيغة الصوتية المخيفة وكأنك تحذر غيرك من أمر طالع عليهم فتقول (الحاقة ، الطامة...)

ثم إن هذا التكرار ، للإبلاغ والإلزام ، وكأني بك تريد أن تسمعها غيرك وهي تقرع أذنيه ، وهو يحاول أن يستغشي ثيابه فتقول :(الحاقة) ، فتصك أذنيه ، فيستدير

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عنك ، فتواجهه من الجهة الثانية بقولك (ما الحاقة) ، فيطأطئ رأسه ذهولا فتقول (وما أدراك ما الحاقة). وكأني الآن بهذا المستمع –وهو المكذب– يحاول أن يسمع الآن بعد هذه القرعات المتتاليات ، فتخف وطأة هذه الصكات قليلا.

{كذبت ثمود وعاد بالقارعة} ، ولم يقل بالحاقة ، لأن قرعها لا زال يتردد في أذنيه أي كذبوا بهذه التي إسمها –فقط– مثل لك في رأسك هذه قارعة.

ومن صيغ التناسب هنا ، أن إختيار المهلكين هنا ، كان مناسبا تماما لهذه النغمية نغمية الحاقة.

يقول الدكتور عشراتي حول هذه الألفاظ : " فيه بناء يستجيب للفاعلية التأثيرية التي انبرى الخطاب في تكريسها وهذا من خلال استثمار نوعية صوتية نغمية في إيحائيتها ، فالحاء الحلقية توشي بالتأوه والحرقة والجفاف . والقاف بالشدة والمحق وهذا الصوامت بالكيفية التي ألحمت عليها (الحاقة) ، عملت على تجسيد حسي للمحتوى الخطابي الذي أراد السياق تبيانه ، إذ مورس في تحقيقها صوتيا المد ، والشد والسكت ، وجميعها أوضاع صوتيةحدية ، الصوت يكتسب فيها امتلاءه ، وغايته. وهذا ما أعطى للخطاب –فيما بعد– نفاذه واقتحاميته ، وهذا يكشف للمتلقي عن حال لا بد أن يعمل على تفاديها "[1].

ولهذا اختتمت كثير من السور بالمثل {فسبح باسم ربك العظيم}[2][3] ، وقوله في سورة النجم {فاسجدوا لله واعبدوا}[4] ، وقوله {ومن الليل فسبحه وإدبار السجود}[5] ، وهكذا نرى أن الآيات التي تكون مبتدءة بمثل هذا القرع والهول تختم هكذا.

---

(1) أدبية الخطاب القرآني ص374
(2) سورة الحاقة الآية(52) آخر السورة
(3) سورة الواقعة الآية(96) آخر السورة
(4) سورة النجم الآية(62) آخر السورة
(5) سورة الطور الآية(49) آخر السورة

إذا فكيف تطرق السياق إلى هلاك هذه الأمم ، وكيف وظفها لتأكيد هذه الحاقة ، فأما ثمود فأهلكوا بريح (صر/صر) عاتية وقل نفس الكلام عن (الصر، صر) وعن (العاتية) قولك عن الطاغية ، مع مراعاة أن هلاك هذه الأمم وصف بصيغ أخرى في سور أخرى، كقوله تعالى {فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها}[1] ، فهذه ميمات توحي بالحزن العميق الذي ساد ويسود عند الحديث عنهم ، لكنه لا يناسب القرع والطغيان والعتو ، هنا في سورة الحاقة بخلاف سورة الشمس.

وانظر كيف قسم الله هذا الكلام فأجمل ثم فصل ، ثم أجمل وأجمل.

أجمل في قوله {كذبت ثمود وعاد بالقارعة} ، فكانت فاصلة تناسب الحاقة وتصفها ، ثم فصل هلاكهما ، فأما ثمود فالبطاغية ، وأما عاد فبالعاتية ، فأنتجتا فاصلتين شارحتين كذلك لمعنى الحاقة.

ثم أنه أجمل الخاطئون (كذب فرعون ومن قبله والمتفكات وكان إشتراكهم في تكذيب الرسل ، ولكن استبدلت برسول واحد على الرغم من أنهم كذبوا رسلا عدة ، لإثبات أن الرسالة واحدة وإن تعدد المرسلون ، ولأن الحديث هنا عن التكذيب نفسه لا عن صفته وموضوعه ، وكان ختام ذلك بهلاكهم بالأخذة الرابية ، أي التامة الوافية ، وشكل بذلك فاصلة أخرى تجعل من تحقيق الحاقة أمر ممكن ، وذلك لتناسب كذلك عتو عاد وجبروتها ، فكانت سبع ليال وثمانية أيام حسوما.

والملاحظ أن هذا التفصيل في عدد الأيام والليالي ، وفي حال القوم وهم صرعى وتشبيههم بأعجاز النخل الخاوية ، إنما كان ذلك كله للتيسير فهم الحاقة واستساغة حدوثها ليس إلا ، فتصير ممكنة ومشاهدة ولذلك كان جواب رسول الله ﷺ لما سأله

---

(1) سورة الشمس الآية(16) ، ويراجع باقي هلاك هذه الأمم في كتب التفسير كي تتجلى الفروق الصوتية.

جبريل -عليه السلام- ، عن الإيمان (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[1].

وخلال هذا الزخم من الأحداث والمصائب ، وهذا الهلاك والدمار ، لا تنقطع رحمة الله عز وجل ، فكل هلاك لهذه الأمم كانت فيه نجاة للمؤمنين ، هلاك فرعون ومن معه كانت فيه نجاة موسى -عليه السلام - هو ومن معه {فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا إن معي ربي سيهدين فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وأزلفنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين}[2]. هذا مثال ، غير أن السياق في هذا المقام يقتضي نموذجا يمثل رحمة الله العامة التي تثبت أنها تلاحق الإنسانية المؤمنة في أحرج الأوقات ، فالمصائب والهلاك الذي ذكر كان موضوعيا ، أي في أماكن محددة ، بخلاف الطوفان الذي عم كل الأرض ، لذلك جعل الله سبحانه وتعالى ، النجاة منه نموذجا للنجاة من باقي القصص التي أوردها ، وكأنها إشارة إلى قدرته ، فمن أنجى في مثل هذه قمن أن ينجي فيما سواها.

وانظر كيف تغير الأسلوب في هذين الآيتين فقط وانقلب إلى اللطف والرحمة {إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية} (أي أباءكم) {لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية}[3].

---

(1) رواه البخاري
(2) سورة الشعراء الآيات(62،63،64،65،66)
(3) سورة الحاقة الآيات(11،12)

وهنا وإن كان الوصف لحالة ماضية ، إلا أن الحديث عن الهول هو الموضـــوع لذلك نعتبر أن الآيتين ، آيتي النجاة تعدا إلتفاتا كي لا تنحصر الأذهان في الدمـــار فقط ، فكما أن الله تعالى جبار فهو كذلك رحيم ، جبار على الطغاة ، رحيم بالمؤمنين {اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم}[1] ، وهي مراوحة تتخلـــل كـــل القرآن.

كانت هذه الفقرة السابقة وحتى الآية(12) حديثا عن القيامة الموصوفة هذه المـــرة بالحاقة ، وكان تأكيدها من جانب تاريخي ، فمن كان قادرا على هلاك الأمم الظالمة والمكذبة ، لقادر على تحقيق هذه الحاقة ، ولقد لاحظنا كيف كان ترتيبها وتنظيمـــها وتناسقها.

فإذا استقر الآن الإيمان ، بأن ذلك شيء ممكن وقد استشف ذلك من هذه الدروس التاريخية المتكررة ، فلا بد هناك من سؤال ملح هو : كيف ذلك ؟ ومتى ؟ هذا مـــا سنتطرق إليه في الفقرة الثانية التي تعالجها هذه السورة.

---

(1) سورة المائدة الآية(98)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفقرة الثانية :

إن موضوع السورة كما ذكرنا هو حقيقة البعث ، والحديث عنها في إثباتها كان صارما وقويا ، إنقسم إلى قسمين ، إثبات يوم القيامة إثباتا مجردا {الحاقة ما الحاقة}[1] ، ثم نص على تاريخ الأمم المكذبة ومصيرها ، {كذبت ثمود وعاد بالقارعة}[2] ، كان هذا مضمون هذه الفقرة ، قوة الألفاظ ، وقوة في الدمار والخراب تلون بتلك الألفاظ الضخمة والقوية (**الحاقة ، القارعة ، الطاغية ، العاتية ، صرصر حسوما ، صرعى ، خاوية ، باقية ، الخاطئة ، رابية ، طغى الماء...**) ، والملاحظ أن هذه الفقرة اختتمت بألفاظ وديعة {حملناكم في الجارية ، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية}[3] ، وهكذا انتهت ، فكيف بدأت الفقرة الثانية وما وجه مناسبتها بما قبلها.

{فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة(13)وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة(14)فيومئذ وقعت الواقعة(15)وانشقت السماء فهي يومئذ واهية(16)والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية(17) يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية(18)فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه(19)إني ظننت أني ملاق حسابيه(20)فهو في عيشة راضية(21)في جنة عالية(22)قطوفها دانية(23)كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية(24)وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول ياليتني لم أوت كتابية(25)ولم أدر ما حسابيه(26)ياليتها كانت القاضية(27)ما أغنى

---

(1) سورة الحاقة الآيتين(1،2)
(2) سورة الحاقة الآية(3)
(3) سورة الحاقة(12)

هنيئا مريئا(28)هلك عني سلطانيه(26)خذوه فغلوه(30) ثم الجحيم صلوه(31)ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه(32)إنه كان لا يؤمن بالله العظيم(33)ولا يحض على طعام المسكين(34)فليس له اليوم هاهنا حميم(35)ولا طعام إلا من غسلين(36)لا يأكله إلا الخاطئون}[1].

إن وجه المناسبة هنا ظاهر مع الفقرة السالفة ، بحيث كان هناك إخبار باجمال فيه ردع واستشهاد بالحاضر -لا بالغيب- وهو تاريخ الإنسانية الضالة ، وهنا جاء الوصف والتفصيل والملاحظ هنا أن التناسب يجري مجرى الدم في هذه السورة ، حيث انتقل السياق والإيقاع إلى رنات أخرى ، وأسلوب آخر يتناسب مع هذه الحالة أو هذه الفقرة.

هناك صفتان خطابيتان تلاحقاننا في هذه الفقرة الثانية؛ كانتا ديدنة الفقرة الأولى الفاصلة ، فإنها استمرت تاء ، أو هاء سكت حتى قبيل نهاية هذه الفقرة من الآية(13) وحتى الآية(29) أما الآيات (30) وحتى (37) ، فإنها تغيرت لغرض سنبينه حين بلوغه.

أما الامر الثاني فهو إستمرار عملية الوصف ولكن بشيء من التفصيل مع تفاوت في الشدة مع المومنين ومصيرهم والكافرين ووعيدهم.

وقد شكل الإطار الزمني في هذه الفقرة أقوى دليل يتناسب مع هذا المصطلح(الحاقة) ، فالحاقة التي تحق تكون في يوم معين، وفي زمن مقدر ، ولفظة الحاقة كانت تحمل صفة الزمن الغير معين ، أما في هذه الفقرة الشارحة فقد تكرر

---

(1) سورة الحاقة الآيات(13 إلى 37)

لفظ الزمن ست مرات (يومئذ ، يومئذ ...) مما يشعر القارئ أن ذلك حاق لا محالة وفي يوم معلوم ، يكون الإعلان عنه بالنفخ في الصور {فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة}[1] ، ويكون حصوله بهذا التغير العجيب والمفاجئ {وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة}[2] ، إن ضخامة الأمر وقوة الموقف لا تكمن في الألفاظ ، فالألفاظ هنا ليست قوية قوة ألفاظ الفقرة السابقة ، بل قوتها تكمن في الوصف ، والحالات الطارئة التي تحدث على مرأى ومسمع هذا الإنسان ، أما المسمع فيتمثل في النفخ في الصور ،النفخة العظيمة ، كما دلت عليه سورة النمل في قوله تعالى {يوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين}[3] ، ودلت عليه كذلك سورة الزمر في قوله تعالى {ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون}[4] ، كان هذا على مستوى السمع.

أما على مستوى البصر ، فمشهد حمل الأرض والجبال و نفضها ودكها دكة واحدة ، تسوي عاليها بسافلها.

يقول صاحب الظلال : "مشهد مروع حقا هذه الأرض التي يجوس خلالها الإنسان آمنا مطمئنا وهي تحته مستقرة آمنة ، وهذه الجبال الراسية... ." أ.هـ [5] ، إن الله عز وجل وصفها بقوله {هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا[*] فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور}[6] ، فإذا هي أشبه بكرة صوف يعفجها طفل بين يديه

---

(1) سورة الحاقة الآية(13)
(2) سورة الحاقة الآية(14)
(3) سورة النمل الآية(87)
(4) سورة الحاقة الآية(68)
(5) في ظلال القرآن ج6 ، ص3679
(*) وصف الله سبحانه وتعالى الأرض بهذه الصفة (الذلول) ، ولم يصفها بغيرها ، إشارة إلى أنها تدور وتتحرك وذلك لأن لفظ ذلول مستعار عن الدابة ، فيقال دابة ذلول ، أي دابة إذا ركضت أو سارت لا تسقط راكبها ، فهي تجري بانتظام ، فسبحان الله فهذه اللفظة لوحدها تمثل معجزة فلكية كاملة.
(6) سورة الملك الآية(15)

وإذا تلك الجبال القويـــة التي تشبه السفن الضخمة في رسوها كما وصفها المولـــى {وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم}[1] ، وتشبه –ولاشبه غير نفسها في العلو– كما قال تعالى {وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا}[2](*)

وهذه الجبال التي لاتشبه في اتساقهـــا وتمكنها من الأرض إلا الوتد الذي يوضع للتثبيت ، كما قال الله تعالى {ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا}[3] ، كـــل هـــذه الضخامة تصير كأنها لعب كرتونية تدوسها قدم ، أو تتلاعب بـــها الريـــاح ، هـــذه معاني {وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة}، وما يشعر تكرر لفظة (واحدة) مرتين عند النفخ وعند الدك ، إذ لا تردد ولا شك ولا مراجعة فـــهي الحاقـــة ومـــا أدراك ما الحاقة. فماذا يحدث يوم ذلك ؟ {فيومئذ وقعت الواقعة}[4] وفي كل هـــذا الذي سبق ثلاث تناسبات هي :

1– إن الله تعالى عبر عن القيامة بالحاقة

2– وصفها بعد ذلك بأنها قارعة ، وهي صفة من صفاتها

3– وصفها بأنها واقعة ، وكأنه يقول إن الذي مضى من أدلة كاف بأن تتأكد من أنها تقع ، فهي واقعة ، ثم أن هناك تحويل[5] أو ما نطلق عليـــه اليـــوم الإحالـــة علـــى المصدر، فهذه الواقعة هي عنوان سورة مكية كاملة ، تصف الحاقة وصفا مفصـــلا وهي تشبه إلى حد كبير وكبير جدا سورة الحاقة ، فهي تشبهها فـــي افتتاحـــها {إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة} (أي هي حقيقية وحاقة) {خافضة رافعة فإذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا}[6].

---

(1) سورة الأنبياء الآية(31)

(2) سورة المرسلات الآية(27)

(*) وعلاقة الشامخات ، بالماء الفرات إشارة إلى أن الجبال الشامخات تجتذب الغيوم نحوها وتتسبب في الأمطار وهذه دقيقة من دقائق التناسب الذي نقصده ونرمي إليه فكن معنا.

(3) سورة النبأ الآيتين(7،8)

(4) سورة الحاقة الآية(15)

(5) التحويل في إصطلاح المحدثين الإنتقال من راو إلى آخر في رواية المتن الواحد ن يراجع مقدمة ابن الصلاح والباعث الحثيث لابن كثير

(6) سورة الواقعة الآيات(1 إلى 5)

وتشبهها بعد الإفتتاح ، فهي تقسم الناس إلى أشقياء وسعداء {فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة}[1] ، وهكذا جميع مراحلها.

ثم تتطابق معها في نهايتها ، إذ غرض السورتين واحد ، فهي تثبت مصدرية القرآن أنه لله وتنفي عنه شبهة التأليف ، وتختم بنفس الآيات التي ختمت بها سورة الحاقة ، فسورة الحاقة ختمت بقوله تعالى {وإنه لحق اليقين(51)فسبح باسم ربك العظيم(52)}[2] ، وختمت سورة الواقعة بقوله {إن هذا لهو حق اليقين(95) فسبح باسم ربك العظيم(96)}[3] ، إذا فإختيار لفظة (الواقعة) كان لغرضين :

- إثبات ان هذه الحاقة ستصير واقعة
- هي إحالة للقارئ الذي يريد أن يعرف الكثير عن هذه الواقعة فليتحول إلى سورة الواقعة وهذا من أجل صور التناسب التي نسعى إلى تحقيق معرفته.

وخلال هذه المراحل التي تلي الواقعة ، ليس كالحاقة ، فالحاقة تحق ، أما الواقعة فقد وقعت لذلك نرى هذا التردد الزمني(فيومئذ) يتكرر مع كل آية تقريبا ، زيادة في اليقين والتحقيق -كما ذكرنا سابقا- فيومئذ تنشق السماء ، وعرش الرحمان يحمله ثمانية - و قد تعرضنا لذلك بالتفصيل في التفسير التحليلي للسورة- ويومئذ تعرض البشرية فلا تخفى خافية كما عبر عن هذه النفس سبحانه في سورة الطارق {يوم تبلى السرائر}[4]

---

(1) سورة الواقعةالآيات(8،9)
(2) سورة الحاقة الآيات الأخيرة
(3) سورة الواقعة الآيات الأخيرة
(4) سورة طارق الآية(9)

ويجئ بعد تفصيل او تقريع ناجم عن إظهار هذه الخفايا ، أو إبتـــلاء الســـرائر، وجاء على كيفية أسلوبية مشوبة بالإنفعالات النفسية ، متجلية بوضوح ، حتى كأنـــها حاضرة ترى وتسمع ، يتقاسمها الإبتهاج والسرور ، واليأس والندامـــة، كـــل مـــن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، تجسد ذلك في تبيان الألفاظ الصادرة عـــن كـــل فريق.

إن لفظة فرح وسرور وإبتهاج ، كلها لا تسد مسد (هاؤم) ، فـــهي فضـــلا عـــن جزالتها وأنها ليست لفظة مشتقة بل هي أصوات ممزوجة تنبئ عن مكنون الصادرة عنه ، فهي تحمل كل تلك المعاني مع الإنحاح على قراءة الكتاب بـــالأمر واليقيـــن بالنجاة (اقرأوا كتابيه) وتشكل بذلك فاصلة من فواصل هذه السورة ، ويستمر بعدها السياق يصف حالتهم بهدوء (عيشة راضية / جنة عالية / قطوفها دانية / هنيئا).

أما الأشرار أصحاب المشأمة ، فتجسد هولهم وحزنهم وندامتهم في (ياليتني / يا ليتها / وما أغنى عني / هلك عني...) ، وذلك التماوت و التأوه الذي يصحب هـــذه الألفاظ ، ومن الجدير بالملاحظة أن القرآن الكريم يعمد إلى الجملـــة فـــي بعـــض المواطن ويعدل عن الألفاظ المناسبة لها أو التي تعادلها لغرض دقيق جدا ، من ذلك قوله تعالى{وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف}[1] ، فانظر كيف عدل عن (لفظة) الوالد إلى (المولود له) ، وأشرنا إلى هذه الدقيقة عند حديثنا عـــن الخطـــاب التشريعي . وكيف عدل في قوله تعالى في ســـورة يوســـف عـــن إمـــرأة العزيـــز {وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معـــاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظـــالمون}[2] ، وفائدة العدول عن (إمـــــــــرأة العزيز)

---

(1) سورة البقرة الآية(233)
(2) سورة يوسف الآية(23)

إلى (التي هو في بيتها) لغرضين هما :

- أنه تربى على يدها حتى كأنه إبنها
- أنها صاحبة بيت وزوج ، فكيف يصدر عنها مثل هذا الخطـــــأ.

والقرآن الكريم مليء بمثل هذا ولا يلتفت إليه إلا القليل ، من أجل ذلك عمـــد الله إلى هذه الجمل (هاؤم إقرؤا كتابيه) (ويا ليتها كانت القاضية) ، مــــع كونـــها تشكـــل رؤوس آيات وفواصل.

والملاحظ أن الأسلوب هنا ، بعد أن ذكر أهل النار ، تغير تغيرا مفاجئا ، وهو ما إصطلحنا عليه في المباحث السابقة بالإلتفات ، ففي معرض الحديث عـــن هـــؤلاء الأشقياء ينتقل السياق إلى الأمر الصارم ، وكأني به متهم أمام القاضي نفذت حجتـــه فلما رآه القاضي يتمتم أمر بسجنه بصوت عال فتضاعفت عليه الشدة ، شدة الندامة وفجاءة الأمر الصارم الذي لا تتردد فيه :

خـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــذوه

فغـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــلوه

ثم الجحيم صلـــــــــــــــــــــــــــوه

ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكـــــــوه

وانظر هذه الواو والهاء التي تشبه التأوه ، وكأنه لما ذكرت هذه الألفاظ قال :(أوه أوه ، أوه) ، إنه مشهد رهيب حقا.

ثم إلتفات آخر ، بعد أن غادر هذا المسكين المحكمة إلى العذاب ، جاء تقرير كاف عن سبب مصيره وإثبات أدلة المحكمة على قرارها ، والمناسب لذلك هو عرض الأدلة في أسلوب هادئ {إنه كان لا يؤمن بالله العظيم}[1] ، وانظر كيف تناسبت الفاصلة مع المعنى ، فعظم الجرم ، أن الله عز وجل على عظمته كذب به ولم يؤمن به ، فجاءت لفظة "عظيم" لهذا الغرض وتقدمت غيرها من أسباب الإدانة لأن من كانت هذه حاله تترتب عنه الأسباب الأخرى وهي {ولا يحض على طعام المسكين}[2] ، يقول سعيد حوى -رحمه الله- : "وفيه دليل قوي على عظم الجرم حرمان المسكين ، لأنه عطفه على الكفر وجعله دليلا عليه وقرينة له ، ولأنه ذكر الحض دون الفعل ليعلم أن تارك الحض إذا كان بهذه المنزلة فتارك الفعل أحق"[3]

ونورد حديثا *لأبي الدرداء* ، أنه كان يحض إمرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ويقول : خلعنا نصف السلسلة بالإيمان ، إشارة إلى قوله عز وجل (لايومن بالله العظيم) ، فلنخلع نصفها الأخر بهذا ، إشارة إلى قوله (ولا يحض على طعام المسكين).

فهذان دليلان كافيان ، فيما يتعلق بحق الرب العظيم وما يتعلق بخلق الله ، فلذلك كان هذا مصيره ، ولا أحد بعد هذه الأدلة ، يشفع له عند الله لأنه لا يؤمن به ولا طعام له أنفقه في الدنيا أو أقرضه الله فيجده عند الله أو عند الناس.

كما أن هناك تناسب دقيق أيضا في هذه المقابلة :

لا يؤمن بالله العظيم ---------- فليس له اليوم هاهنا حميم

ولا يحض على طعام المسكين ------- ولا طعام له إلا من غسلين

---

(1) سورة الحاقة الآية(33)

(2) سورة الحاقة الآية(34)

(3) الأساس ج11 ، ص6114

ففضلا عن هذه القافية ، أنظر إلى المعاني كيف رصفت ورتبت دونما تقعـــر أو تمحل ، هذا جزاؤهم ، وهذا طعامهم إنهم الخاطئون.

كانت هذه هي القضية التي عالجتها الفقرة الثانية وقد نبهنا إلى سر كونها جـــاءت شارحة للفقرة الأولى التي تضمنت الإخبار والإنكار والسرد التاريخي. ورأينا كيف تجمعت لهذه الفقرة كل الوسائل الصوتية والزمنية والنفسية فانتهت بتلك المحاكمـــة الربانية التي صدرت عن حكمين ، بالسعادة للسعداء ، والشقاوة والبـــأس للبؤســاء وللأشقياء يوم القيامة.

وقفة مع هذه الفقرة المتوسطة :

هذه الفقرة علاقتها مع سابقاتها جلية كما أوضحنا ، وللسائل أن يســـأل وهـــو لا يعرف عن الفقرة الثالثة والأخيرة شيئا ، بعد هذا العموم والإبـــهام الـــذي تصـــدر السورة في الفقرة الأولى . وبعد هذا التوضيح والشرح الذي إكتنف الفقرة الثانية ، يا ترى ماذا تعالج الفقرة الثالثة ؟

لنضرب على ذلك مثالا :

هناك إنسان ظمآنا ، وهو لا يصدق أن هناك في تلك الصحراء ماء ، فتخبره أولا أن هناك ماء حق (الحاقة) ، وتخيفه أن يموت ظمآنا كأناس ماتوا قبلـــه فـــي هـــذه الطريق عطشا ، كونهم لم يبحثوا عن هذا الماء (البئر) ، ويقابله من السورة الســـرد التاريخي للمكذبين.

فلا بد أنه سائلك إذا كنت صادقا ، فأخبرني عن مواصفاته ، فتصفه لـــه ، وهـــذا يقابل الفقرة الثانية (إذا دكت الأرض دكا دكا وجاء ربك ....) ، فتقول إن هذا البئر يبعد عنا بكذا وكذا ، وبقربه صخرة وعنده جنة وهكذا.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فيا ترى بعد هذا ، ماذا تفعل معه ، وهو لا يزال يتردد ؟

إنك لا محالة ستقسم له بأنك على حق ، وأن هذا الخبر صحيح ، وبأنك صـــادق وان الذين لم يخبروك بهذا الماء أرادوا بك شرا ، وهذا يقابل {فلا أقسم بما تبصرون وبما لاتبصرون إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تومنـــون}. ثم تخبره انك إن كنت كاذبا فلتستحق القتل منه إن لم تجد الماء ، وهذا يقابل قوله تعالى {ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين} ، فإذا كذب بعد ذلك فمصـــيره المـــوت والحسرة {وإنه لحسرة على الكافرين} ، وإن صدق فسيشرب ، فأمره أن يحمد الله تعالى وقل له {فسبح بحمد ربك العظيم} ، فسبحان ربي العظيم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفقرة الثالثة :

هذه الفقرة كما بينها المثال واضحة وضوح الشمس ولا تستدعي منا كلاما طويلا ومفصلا كباقي الفقرات ولكن ننبه إلى بعض الجوانب منها فقط.

هذه الفقرة لا تتعلق بالفقرة السابقة فقط ، بل هي ختام لكل السورة ، وأسلوبها وإن كان يتراوح بين الشدة واللين ، إلا أن طابعه وعظي وإرشادي {فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون}[1] ، فيه إشارة إلى علم الله الواسع وعلم الإنسانية المحدود وهو توطئة للمخاطب حتى يدرك أن هناك ما يدرك بالسمع وهناك ما يدرك بالتصديق فلا يعجل بمحاولة الرد. فهذا الكلام الذي يصلكم هو عن طريق رسول كريم أمين وشاهده من أهلكم ، فأنتم الذين لقبتموه الأمين والكريم.

فنفى عنه الشاعرية بقوله {قليلا ما تومنون} ، ونفى عنه الكاهنية بقوله {قليلا ما تذكرون} ، والسبب فيه كأنه قال : ليس هذا القرآن قولا من رجل شاعر ، لأن هذا الوصف مباين لصنوف الشعر كلها ، إلا أنكم لا تومنون ، أي لا تقصدون الإيمان ، ولو قصدتم الإيمان لعلمتم كذب قولكم (إنه شاعر)

ولا أيضا بقول كاهن لأنه وارد بسبب الشياطين ومسهم ، فلا يمكن أن يكون ذلك بإلهام منهم وليس هناك من يسب نفسه ويتوعدها وقد جاء فيه {ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير}[2] ، وهذا في سورة الملك المجاورة لسورة الحاقة كما ذكرنا ،وجاء كذلك في بداية السورة المجاورة الأخرى {ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون}[3].

---

(1) سورة الحاقة(38)
(2) سورة الملك الآية(5)
(3) سورة القلم الآية(1،2)

وانظر كيف زكى الله تعالى نبيه بعد أن نفى عنه هذا الجنون في السورتين ، فجاء في سورة القلم{وإنك لعلى خلق عظيم} وجاء في سورة الحاقة {إنه لقول رسول كريم} ، وهذا ليثبت دليلا أنه ليس من عمل الشياطين ، فما لهم لايومنون، بل هذا كله يثبت أنه من رب العالمين من ثلاثة وجوه :

- ليس بقول شاعر وقد عرفنا ذلك
- ليس بقول كاهن وسبق ذلك
- ليس بكذب لأن ناقله أمين كريم

فهو بذلك ليس من تاليف البشر ولا الجن ، إنه {تنزيل من رب العالمين}[1] ، وانظر إلى هذا التناسب في ترتيب المقدمات والوصول إلى النتائج.

ومن المألوف أنك إذا أثبت شيئا وحققته ورفعت عنه اللبس واقتنع بقولك السامع ، فإنك عادة ما تضيف -بعد ذلك- كلاما مكملا ومصدقا لحديثك ، كالقول (ولو أن ذلك لم يقع مما فعلت أو ما قلت ، وهكذا) ومن هذا الباب جاءت هذه الإضافة من الله تعالى ، فمع أن محمدا رسول كريم ، وليس بشاعر ولا كاهن ، فمع ذلك لو أنه بدر منه خطأ لعاقبناه ، وقد حدث هذا مع النبي يونس -عليه السلام- وتكلم عنه الله في السورة المجاورة ، فأنعم بهذا التناسب ، وحذره أن يتعجل باليأس أو يضيق صدره من هذا التعبير (بالجنون) ، فقال تعالى {فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم فاجتباه ربه فجعله من الصالحين وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون وما هو إلا ذكر للعالمين}[2](*)

---

(1) سورة الحاقة الآية(43)

(2) سورة القلم الآيات(48 إلى 52)

(*) الملاحظ أن هذه السورة بدأت بقوله (ن) ، وهذا الحرف فضلا على ما قيل عنه كغيره من الحروف التي على رؤوس السور ، فهو يحمل معنى آخر ، فصاحب الحوت الذي اختتمت به السورة يسمى (ذوالنون) في قوله تعالى من سورة الأنبياء الآية (87) (وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن ان لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين} ، فبدات هذه السورة بالنون ، وانتهت بذي النون ، فسبحان الله العظيم

لذلك قال {ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين}[1].

وقال أخذنا منه باليمين ، مع أن المأخوذ به إلى القتل يأخذ من الشمال حتى يرى السيف ، ويضرب في نحره لا في عنقه -وحاول أن تتخيل الوضعية كي تتبدى لك جلية واضحة-.

وهناك لطيفة أود أن أوردها لم أقف على تفسير ذكرها أبدا ، وهي قوة شخص هذا النبي وهو يتنزل عليه هذا التهديد ، لذلك لم يغفل عن تبليغ حتى لفظة (قل) التي بدأت بها بعض السور (كسورة الإخلاص ، سورة الفلق ، سورة الناس ...).

ثم أن هناك لطيفة أخرى يمكن أن أدرجها ضمن التفسير الإشاري لم أعثر على تفسير ذكرها كذلك ، وهي أن هذا التهديد جاء على صيغة المداعبة لنبيه الكريم وليس تهديدا حقيقيا ، ومثال ذلك الولد النجيب الذي يتأكد أستاذه من نجاحه لكنه يأخذ بطرف أذنه بلطف ويداعبه بالتهديد ، فهو كلام أقرب إلى المداعبة منه إلى التهديد ، فمن وصفه الله بالكريم ، لا يمكن أن يكذب ويتقول على الله فيما بعد ، من أجل ذلك أرجح أنها مداعبة ونفي للإفتراء عنه ، وليس تهديدا حقيقيا ، والله أعلم.

أضف إلى هذا ، أن الكلام كله {ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين} ، جاء على سبيل الإعتراض ودليل ذلك الآية الموالية ، {وإنه لتذكرة للمتقين} ، وكأنه قال - تنزيل من رب العالمين ، وإنه لتذكرة للمتقين - فأنعم بهذه اللطافة وهذه الأسرار والإشارات.

---

(1) سورة الحاقة الآيات(44،45،46،47)

بعد هذا تأتي هذه الالتفاتة {وإن لنعلم أن منكم مكذبين}[1] ، وهي إشارة إلى أن كل ما جاء في هذه السورة ، خلال الفقرات الثلاثة ، يوهم القارئ ان كل الناس مؤمنة ، حتى الذين تظاهروا بالإيمان ، وكي يشعرنا الله أنه بكل شيء عليم ، قال -ورغم ذلك كله - {وإنا لنعلم أن منكم مكذبين} ، وكأنه جواب عن سؤال ، وهل يكذب بعد هذا أحد ؟ فكان هذا الجواب ، فأنعم بهذا التناسب يا أخي .

ثم كان الإخبار المقتضب ، حتى لا يحاول أن يكذب المؤمن لكون أن غيره كذب فحذر وقال {وإنه لحسرة على الكافرين وإنه لحق اليقين فسبح باسم ربك العظيم}[2]

وإشارة العظيم هنا تظفي على السورة كلها المهابة والجلال ، فقد استهلت بأمر عظيم ، الحاقة ، وختمت بالعظيم نفسه وهو رب العالمين.

وبهذا أظن أن لحمة السورة كانت واضحة وأن ارتباطها كان قويا ومتينا وأنه كان لكل فقرة مقدمات وخاتمة وكانت كل فقرة تمثل مقدمة للاحقة ، إنه تنزيل رب العالمين ، فسبحان الله وتعالى عما يشركون.

---

(1) سورة الحاقة اللآية(49)

(2) سورة الحاقة الآيات(50،51،52)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثالث

حسن مجاورة هذه السورة مع السورتين اللاحقتين :

إن سورة الحآقة –كما أسلفنا– سورة تعالج أمر البعث ، وأنه حق وكان الإتجاه إلى تصوير الهول والرعب في هذا اليوم ، ممثلين في حركات عنيفة في مشاهد الكون الهائلة كالنفخ في الصور ، وحمل الأرض والجبال وانشقاق السماء ، ثم ذلك الجلال المهيب والمشهد المرهوب ﴿والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ ، أما هنا في سورة المعارج التي تليها ، فيقول سيد قطب –رحمه الله– : " أما هنا في هذه السورة ، فالهول يتجلى في ملامح النفوس وسماتها وخلجاتها وخطواتها ، أكثر مما يتجلى في مشاهد الكون وحركاته"[1].

فالمشاهد والصور والظلال لهذا اليوم تختلف في سورة المعارج عنها في سورة الحاقة ، مع إتحاد الحقيقة الرئيسية التي تعرضها السورتان في هذه المشاهد.

فإذا إستعرضنا هذه السورة من أولها إلى آخرها نكاد نمر بنفس المراحل التي عالجتها سورة الحاقة ، فهي تبدأ بإثبات الواقعة(*) ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾[2] ، وتقدر الزمان والمكان وتسري على النبي ﷺ وتعرض أشكالا مما يحدث يوم القيامة ﴿يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن﴾[3] ، ثم تفصل صفات المجرمين وحالهم يوم القيامة ثم صفات المومنين في الدنيا تفصيلا واسعا يحمل تسع صفات ثم تنتهي بالقسم –كعادة هذه السور– على ان الله عز وجل قادر على إفنائهم واستبدالهم بقوم مؤمنين ، ولكنه يمهلهم. وبعد هذا دائما يثبت ذلك الأمر الواقع ﴿ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون﴾[4].

---

(1) في ظلال القرآن ص3691

(*) هناك من يسمي هذه السورة بالواقعة (نقله الآلوسي)

(2) سورة المعارج الآية(1)

(3) سورة المعارج الآيات(8،9)

(4) سورة المعارج الآية(44)

فما وجه التناسب بين سورة الحاقة وهذه السورة ؟

يقول *الألوسي* : "وهي كالتتمة لسورة الحاقة في بقية وصف القيامة والنار ، وقد قال ابن عباس : إنها نزلت عقيب سورة الحاقة[1].

ويقول صاحب الظلال : " ظاهرة أخرى في الإيقاع الموسيقي للسورة ، الناشئ من بنائها التعبيري ، فقد كان التنوع في الحاقة ناشئا من تغير القاصلة في السياق من فقرة لفقرة ، وفق المعنى والجو فيه ، فأما هنا في سورة المعارج فالتنوع أبعد نطاقا . والجملة الموسيقية هنا أعمق وأعرض وأشد تركيبا "[2]

ويقول سعيد حوى –رحمه الله– : " فإذا تذكرنا سورة الحاقة تحدثت عن أصحاب الشمال وتحدثت عن المكذبين بالقرآن في أواخرها ، ندرك صلة سورة الحاقة بسورة المعارج ، وصلة نهايتها ببداية سورة المعارج ، وندرك كيف كانت سورة الحاقة مقدمة "

هذه النصوص كافية وشافعة لنا كي نضيف هذه الفقرة القصيرة حول هذا التناسب: "إن الخطاب إذا كان على وتيرة واحدة ، وخاصة عند الشدة – كسورة الحاقة – لا يخدم كثيرا النفس البشرية والإنسان كما وصفه الله في هذه السورة {خلق الإنسان هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا}[4].

فكان الخطاب في سورة الحاقة للإنتباه ، وجاء في سورة المعارج للتدبر ، جاءت الأوصاف في سورة الحاقة مقتضبة معضمها مثناة ، وجاء في سورة المعارج مفصلا بلغت فيه صفات المؤمنين ثمان صفات

---

(1) الأساس في التفسير ج11 ، ص6129

(2) الظلال ج6 ص3694

(3) الأساس ج11 ص 6130

(4) سورة المعارج الآيات(19،20،21)

أما سورة نوح -عليه السلام- مع تقاضينا عن علاقتها بسورة المعارج ، فلقد جاءت تسرية للنبي -صلى الله عليه وسلم- في سورة الملك ، بعد أن كذبه قومه {كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير}(1).

وكذبه قومه في سورة القلم ورموه بالجنون {ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون}(2) ، ثم رموه بالكهانة والشعر في سورة الحاقة {وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون}(3).

لما حدث كل ذلك ، ولا بد أن يكون رسول الله ﷺ قد ضاق صدره بما يقولون ، كما قال المولى في سورة الحجر {ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين}(4)(*)

وقد ضاقت صدور الأنبياء من قبل ، كيونس -عليه السلام- وقد سبق ذكر قصته وكذلك موسى -عليه السلام- {قال رب إني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون}(5).

وهكذا كان الرسول ﷺ تحت عناية ربه يذكره من الحين إلى الآخر بأنه أدرى بنفسه وبحاله ، وكلما ضاق صدره أو ضاقت صدور المؤمنين أخبره بذلك ، ومن ذلك قوله تعالى {واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون}(6).

---

(1) سورة الملك الآيات(8،9)
(2) سورة القلم الآيات(1،2)
(3) سورة الحاقة الآيات(41،42)
(4) سورة الحجر الآيات(97،98،99)
(*) لاحظ هنا كيف ختمت هذه السورة بالتسبيح بعد أن نفى عن نبيه تهمة المشركين ، فالتسبيح هو سلاح المؤمن عند الإتهام (فسبحان الله عما يصفون)
(5) سورة الشعراء الآيتين(12،13)
(6) سورة النحل الآية(127)

وقوله تعالى وامتنانه على المومنين {لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين}[1].

وقوله تعالى {وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم}[2].

لهذا جاءت سورة نوح -عليه السلام- مقتضبة ، يطوي فيها الزمان طيا فنوح بعث في قومه مدة طويلة جدا ، قال الله عز وجل {ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون}[3].

وكل هذه المدة تعرض كومضة عابرة أن أخبر بإرساله ، أخبر بدعوته وكيف كان يلح عليهم بالإستغفار وتوفير الله والإمهال والزيادة في المال والبنين ، ثم بين كيف تنكروا له فقال تعالى {وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا}[4].

ثم أخبر عن مصيرهم فقال {مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا}(5)

ثم أخبر عن ما يجب أن يقوله كل نبي بعد دعوته ، ألا وهو الإستغفار

---

(1) سورة التوبة الآية(25)
(2) سورة التوبة الآية(118)
(3) سورة العنكبوت الآية(14)
(4) سورة نوح الآية(07)
(5) سورة نوح الآية(25)

فقال {رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا}[1].

فمن كانت هذه قصة حياته ، وكان هذا هو عناد قومه وتنكرهم له وعدم إتاحة الفرصة له حتى للسماع ، يعد نموذجا للصبر يقتدى به ، وهذا مراد الله تعالى في التسرية على نبيه ، فما لاقى نوح عليه السلام ليس باليسير إذا ما قورن بما لاقى وعانى نبي الله محمد ﷺ وبهذا تكون سورة المعارج شارحة لفحوى سورة الحاقة وأهوال القيامة وتكون سورة نوح مبينة لمعنى خاتمة هذه السورة {وإنه لقول رسول كريم} ، وبهذا نكون بإذن الله تعالى قد استوفينا وأحطنا بجميع الجوانب التي رأيناها مهمة حول هذه السورة النموذجية لمعنى التناسب في القرآن الكريم ، الذي إصطلحناه في البحث ، وهناك روافد إعتمدنا في المباحث السابقة ولم نجد لها مكانة في هذه السورة ، منها سبب النزول ، إذ لم يرد لهذه السورة سبب نزول قوي ، وقد إعتمدنا في بحثنا هذا صحة الأثر لذلك أهملنا مثل هذه الروايات الضعيفة.

---

(1) سورة نوح الآية(28)

الخاتمة

تلك هي الإشكالية وذلك هو الموضوع إنها نفحات لا يهدأ لي بال حتى أنتهي منها ولا يرتاح لي ضمير حتى تضحي أمامي حية متحركة ، ناطقة تفصح عن فحواها ، فنمسي كل سورة من القرآن الكريم ذات كيان مستقل في ذاته حي بذاته ، معبر عن نفسه يستمد حياته من نفسه دون أن تستغني –هذه السورة– عن جاراتها ، شأنها في ذلك شأن كل خلية حية في جسم حي تحيا بذاتها وتنعم بنفسها ويربطها بغيرها رابطة العصب والروح.

إن القرآن الكريم سيظل على الدوام خصبا لا يجدب وعينا نضاخة لا تنضب ، يتجدد بتجدد الأيام ويحي بحياة التفكير فيه ، لا يزيده الإمعان إلا لمعانا ولايزيده التقصي إلا عجبا ! كلما ظن المكتشف له علما ازداد به جهلا فيزدري نفسه أضعاف ما كان يمنحها ، فيوجل قلبه ويقشعر جلده تلك هي استجابة المؤمن وتلك هي عظمةالقرآن.

إن طرق مثل هذه المواضيع يجعل الإنسان –لا يقول يغامر– بنفسه ، فالنفس أمام القرآن هينة بل يغامر بكتاب مقدس وبدين وأدب ، من أجل ذلك آليت على نفسي أن لا أكتب إلا في ساعات هناء وهدوء.

فقد كنت كلما نال مني النصب أو أرهقني التعب بل كلما انتابني بلبلة ملل أو إحـــراج ، وضعت قلمي جانبا واستأذنت بحثي بالإنصراف وهرعت إلى مباح من التسلية ، أقلـــب ديوان شعر ، أو شريط نشيد أو روضة زهر ريثما يهنأ البال وتستريح الأوصال ، فـــإن لكل من ذلك نصيب الذي من شأنه أن ينحرف بالبحث عن معناه ويتخذ غير مجراه لأنه الإنسان الذي يضنيه التعب وليس له إلا القرآن الذي يحي به.

إن الإنسان وهو يكتب عن القرآن يذوب كما تذوب السكرة وسط الحليب ، يلتمس لنفسه وجودا فلا يجد وتغمره سكرة لا دليل عليها ... إنها نشوة القرآن.

وبعد هذا العرض تبين أن التناسب في القرآن الكريم هو ميزته الخاصة والعامة وأن أي حكم أو لغز لغوي ، أو بديهة علمية لا يمكن أن تستنبط بحق إلا بمراعاة هذا التناسب – حسبما بينا– فالمعنى للسابقة عنوان للاحقة ، والمعنى في اللاحقة شرح للسابقة وكلاهما بينهما صهر ونسب ، إذا لا يتأتى لك معرفة معنى إلا بذلك كله.

والجدير بالملاحظة أن معظم هذه المباحث تعد دقيقة نسبيا مما يدفع إلى القول بـــالتمعن فيها والروية قبل مباشرة النقد وإن كان من أهم أهدافنا إثارة هذا الموضوع ، لأني أدرك أن كل هذا الذي قدم لا يجيب عن ذلك التساؤل بالكلية فضلا عن إشباع ذاك النهم.

فإن أصبت فمن الله وحده وإن أخطأت فمني ومن الشيطان.

وبعد هذا لست أزعم أني حققت كل ما أردت ولكن ما بينتـــه كـــان غـــايتي والحمد لله رب العالمين.

الفـــــــــــــــهرس

البـــاب الأول :
المناسبة ، أسباب النزول والوظيفة البنائية

الفـصل الأول :

المبحث الأول :

المناسبة والوظيفة البنائية ص 1

تعـــــريف المناسبـــة ص 2

المبحث الثاني :

تنزلات القـــــرآن الكـريـــم ص 7

الحكمة من نزول القرآن منجما ص 10

سبب النـــــزول والمناســـــبة ص 12

المبحث الثالث :

المناسبة في تفاسير المتقدمين والمتأخرين ص 15

الفصـــل الثاني :

المبحث الأول : (التناسب العـــام)

دراســة أسلوبيــة ص 23

تنوع الأساليب في القرآن الكريم ص 26

الأسلوب العلمي التقريري ص 30

الأسلوب الأدبي ص 32

الأسلوب الأدائي التصويري ص 35

المبحث الثاني :

البيان القرآني متحد النسق ص 38

علاقة المجاورة بين السور ص 43

القــاعدة الأولى ص 44

القــاعدة الثانيــة ص 45

تطبيق على القاعدتين ص 46

التناسب بالجوار حسب ترتيب النزول عند المــراغي ص 51

المبحث الثالث :

بعض المقومات الخطابية ص53

المقوم الأول : الإلتفات ص 15

نماذج للإلتفات في القرآن ص55

المقوم الثاني : الحذف ص 59

نماذج للحذف في القرآن ص 62

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الباب الثالث :

دراسة تطبيقية

المبحث الأول :

سورة " الحاقة " ص100
التفسير التحليلي للسورة ص 102
سورة الحاقة وسطة العقد ص 111
بين يدي سورة الحاقة ص 118
رسم بياني للسورة ص 121
الفقرة الأولى : ص 121
الفقرة الثانية : ص 128
الفقرة الثالثة : ص 128

المبحث الثاني :

حسن المجاورة مع اللاحقتين ص 142
الخاتمة ص 147
فهرس الموضوعات ص 148
فهرس المصادر ص 151

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الباب الثاني :

بنية بنيتي السورة والتناسب الأدائي الموضوعي

الفصل الأول :

المبحث الأول :

مجاورة المعاني داخل السورة الواحدة ص 67

النموذج الأول :

سورة (ق) ص 69

تقسيم مواضيع السورة ص 70

وقفات مع مقاطع السورة ص 72

النموذج الثاني : ص 73

مقاطع قرآنية متفرقة ص 74

المبحث الثاني :

النموذج الثالث :

تناسب الهلاك مع المعصية ص 76

مناسبة الألفاظ للمعنى المراد ص 79

استعمال الشارد من الألفاظ ص 81

اللفظة الواحدة تمثل محور السورة ص 84

التفنن في الألفاظ ص 86

الفاصلة القرآنية عنوان للجملة ص 88

المبحث الثالث : دراسة صوتية

تناسب النغمية الصوتية مع المدلول الأدائي ص 89

هيكل توزيع النغمية الصوتية للخطاب ص 90

تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني ص 92

تصوير اللفظ على هيئة المعنى ص 93

مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث ص 96

تناسب الحروف المتماثلة في القرآن الكريم ص 96

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس المصادر و المراجع

1) القرآن الكريم برواية ورش
صحيح البخاري
المنجد في اللغة و الأعلام ط 28.
المعجم الوسيط – مجموعة من المؤلفين
القاموس الجديد للطلاب –مجموعة من المؤلفين

– أ –

•أدبية الخطاب القرآني ------> سليمان عشراتي
•أسرار التكرار في القرآن ---> السيد شيخون القاهرة مكتبة الكليات الأزهرية 1982.
•أضواء البيان في ايضاح القرآن الكريم ---> محمد الأمين الشنقيطي – عالم الكتب– بيروت.
•أسرار ترتيب القرآن الكريم – جلال الدين السيوطي – تونس – دار بو سلامة.
•الإعجاز البياني في ترتيب أيات القرآن الكريم – عبد الفتاح الدجني – مكتبة الفلاح – الكويت – ط 1
•الإعجاز العددي في القرآن الكريم – عبد الرزاق نوفل – ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر –
•أسرار التقديم و التأخير ففي القرآن – محمد السيد شيخون – مطبعة ---- الأزهر.
•الإعجاز في دراسة السابقين – عبد الكريم الخطيب – دار الفكر العربي – القاهرة – 1964
•ابن القيم و حسه البلاغي .
•اعجاز القرآن الكريم – محمود شلتوت – دار الشروق – القاهرة –
•الأسفار المقدسة في الأديان السابقة – علي عبد الواحد وافي – دار النهضة – مصر.
•الإعجاز الفكري في القرآن – السيد الجميلي – دار الشهاب – الجزائر–
•الأمثال في القرآن الكريم – ابن قيم الجوزية ، تحقيق سعيد نمر الخطيب – دار المعرفة.
•الإتقان في علوم القرآن – جلال الدين السيوطي – تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم – المكتبة العصرية – بيروت طبعة 1988.
•اسباب النزول – الواحدي ---> دار المعرفة – بيروت – لبنان –
•التفسير – سعيد حوى – دار ابسلام للطباعة و النشر و التوزيع ط 1 1985.
•الإنسان في القرآن الكريم– عباس محمود العقاد –المكتبة العصرية – بيروت –
•أسرار البلاغة – عبد القاهر الجرجاني تحقيق السيد محمد رشيد رضا – دار المعرفة – بيروت .

- ب -
• البرهان في ترتيب سور القرآن - أبو جعفر الزبير الغرناطي - المغرب
• البنية السردية في القصص القرآني - طول محمد - ديوان المطبوعات الجامعية
• البرهان في علوم القرآن - برهان الدين الزركشي - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم - المكتبة العصرية - بيروت
• البقلاني و كتابة أعجاز القرآن-
• البلاغة الواضحة - علي الجارم / مصطفى أمين - دار المعارف - مصر
• الباعث الحثيث - ابن كثير - تحقيق أحمد محمد شاكر -دار الكتب العلمية - بيرووت
• بلاغة العطفة في القرآن الكريم - عفت الشرقاوي - دار النهضة العربية - بيروت
- ت -
• التفسير الموضوعي في القرآن الكريم - محمد أحمد يوسف القاسم - القاهرة
• تفسير التحرير و التنوير -الطاهر بن عاشور-الدار التونسية للنشر- تونس.
• التصوير الفني في القرآن الكريم - سيد قطب - دار الشروق -
• تفسير أبي السعود - أبو السعود محمد بن محمد العماري.
• التفسير الحديث - محمد عزت دراوزة - دار أحياء الكتب العربية - عيسى البابي
• التفسير الكبير - الفخر الرازي - دار أحياء التراث العربي - بيروت ط 3
• تفسير المراغي - أحمد مصطفى المراغي - دار أحياء التراث العربي - بيروت
• تأويل مشكل القرآن - ابن قتيبة عبد الله بن مسلم - دار التراث - القاهرة-
• التبيان في أقسام القرآن - ابن قيم الجوزية - دار الكتب العلمية - بيروت .
• التكملة الإيضاح العضدي ابن علي الحسن بن أحمد الفارسي - تحقيق الدكتور حسن شاذلي فرهود ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - 1984.
• التيسير في أحاديث التفسير - محمد المكي القاهري - دار الغرب الإسلامي.
• التعبير الفني في القرآن الكريم - بكري شيخ أمين دار الشروق - ط 2 1986 القاهرة.
- ج -
• الجواهرن تفسير القرآن الكريم - طنطاوي جوهري - مطبعة الحلي - مصر 1341 هـ.
• الجواهر الحسان في تفسير القرآن - عبد الرحمان الثعالبي - تحقيق عمار طالبي - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر -
• الجامع لأحكام القرآن - للإمام القرطبي .
• الجدل في القرآن الكريم - لبيب السعيد - دار المعارف -ط2 القاهرة.
• جامع البيان في تفسير القرآن - المطبعة الأميرية - القاهرة - 1323 هـ.
- ح -
• حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين - أحمد الصاوي المالكي -
• الحجة في القراءات السبع للإمام ابن خالويه - تحقيق عبد العالي سالم مكرم -دار الشروق ط1 القاهرة.

- خ -

• الخصائص - أبو الفتح عثمان بن جني ت 392 هـ- تحقيق محمد علي النجار- دار الهدى للطباعة و النشرط 2.

- د -

• دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني - أحمد جمال العمري -دار---
• دراسات في التفسير الموضوعي - -- بن عواض الألمعي - مطابع الفرزدق الرياض-.
• دراسة في القرآن الكريم من التفسير الموضوعي - محمد عبد السلام محمد - الكويت .
• دراسة البقلاني لنظم القرآن - عبد العزيز يس-
• دراسة فنية في قصص القرآن الكريم - محمد البستاني - دار البلاغة .
• درة التنزيل و غرة التأويل - الخطيب الإسكافي - دار الأفاق - بيروت .
• دراسة علم النفس الإنساني - محمد البستاني - دار البلاغة - بيروت ، لبنان ط 2.
• دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجاني - مطبعة الأنيس 1991.

- ش -

* شرح الكافية البديعية - صفي الدين الحلبي - تحقيق نسيب نشاوي -ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1989.
* شرح بن عقيل - المكتبة العصرية - صيدا - بيروت 1990.

- ف -

* الفن القصصي في القرآن الكريم - محمد خلف الله - مكتبة الأنجلو المصرية- ط 2.
* الفوائد - ابن قيم الجوزية - مكتبة الخامجي - القاهرة -
الفاصلة في القرآن الكريم - محمد حناوي - [illegible]
* فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن - ابن الجوزي - تحقيق محمد ابراهيم سالم القاهرة [illegible]
* في ظلال القرآن - سيد قطب - دار الشروق القاهرة ط 15 - 1988.
* فتح الرحمان بكشف ما يلتبس في القرآن - أبو يحي زكريا الأنصاري -تحقيق محمد علي الصابوني - مكتبة رحاب ط 2 - 1988.
* الفلسفة القرآنية - عباس محمود العقاد - المكتبة العصرية - بيروت -
* فقه اللغة المقارنة - ابراهيم السمرائي- دار العلم للملايين - بيروت
ط 3 1983.

- ق -

* القرآن نظمه و ترتيبه - عبد الكريم الخطيب -دار الفكرر العربي - الكويت
* القرآن الكريم هدايته و اعجازه في أقوال المفسرين.
* قاموس القرآن أو اصلاح الوجوه و النظائر - الحسين ابن أحمد الدمغاني - تحقيق عبد العزيز سيد الأهلي - دار العلم للملايين - ط2 1977.
* القياس في النحو - لأبي علي الفارسي - تحقيق منى الياس .
* القاموس الجديد للطلاب - مجموعة من المؤلفين -.

قواعد التفسير - خالد بن عثمان السبت - دار ابن عفان - المملكة العربية السعودية ط 3 1997.

- ك -

• تفسير الكشاف - جار الله الزمخشري - دار الفكر - مصر - ط1 1977
• كلمات القرآن الكريم - حسن مخلوف - مكتبة رحاب - الجزائر-

كشوف جديدة في اعجاز القران الكريم - عادل عبد الله القليقلي.

- م -

* مقدمة في التفسير - حسن البنا - دار القرآن الكريم - الكويت -.
* من روائع القرآن الكريم -محمد سعيد رمضان البوطي- مكتبة الفرابي - ط 2
* معاني القرآن - الأخفش الأوسط - تحقيق هدى محمد -مكتبة الخانجي بالقاهرة - ط 1.
* من جماليات التصوير في القران الكريم - محمد قطب عبد العال-مكة المكرمة 1990
* من أساليب القرآن بين المعنى و الصناعة النحوية -حامد أحمد نبيل - القاهرة 1984
* متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار الهمذاني-تحقيق عدنان محمد زرزور-دار التراث-لبنان
* مجاز القرآن -أبي عبيدة معمر ابن المثنى-تحقيق محمد فؤاد-نشرسامي الخامجي مصر.
* مناهل العرفان في علوم القرآن -عبد العظيم الزرقاني - دار الفكر القاهرة.
* مشاهد يوم القيامة - سيد قطب - دار الشروق ط 7 1989.
* معاني الحروف في القرآن -الشريف قصار-المؤسسة الوطنية للكتاب -الجزائر 1984.
* موازين القرآن-عزالدين بليق-دار الفتح للطباعة والنشر-بيروت -لبنان -ط 2 1984.
* مختارات من الشعر الجاهلي -علي بن محمد- ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ط 2 1986.
* االمستشرقون و ترجمة القرآن -محمد صالح البنداق - منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت ط1 1980.
* معجزة القرآن - محمد متولي الشعراوي - شركة الشهاب - الجزائر 1988.
* المعجزة الكبرى - الإمام محمد أبو زهرة - دار الفكر العربي - القاهرة.
* المحاور الخمسة للقرآن الكريم -دار الهدى - الجزائر - لمحمد الغزالي

- ن -

• النظريات اللسانية و الأدبية عند الجاحظ – محمد الصغير بناني – ديوان المطبوعات الجامعية 1983.
• النظرات – المنفلوطي – دار الثقافة – بيروت –.
• نهوض القرآن بخصائص اللغة العربية التعبيرية – حسن محمد بجودة.–
• النظم البلاغي بين النظرية و التطبيق – حسن اسماعيل عبد الرزاق – دار الفكر – القاهرة.
• نظريات في اللغة الألسنية – أنيس فريحة – دار الكتاب اللبناني – بيروت –.
النبأ العظيم –عبد الله دراز – مطبعة السعادة – القاهرة 1960.

- هـ -

* هداية السالك إلى ألفية بن مالك – صبيح التميمي.– دار الهداية قسنطينة –

- و -

* الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم – محمد محمود حجازي – دار الكتب الحديثة – شارع الجمهورية العابدية – الكويت 1980.
* الوحدة الموضوعية في سورة يوسف – محمد باجودة – جدة.
* واقعية المنهج القرآني – توفيق محمد السبع – صيدا بيروت المكتبة العصرية 1973
* الوجيز في الأصول – عبد الكريم زيدان –.
* وحي القلم – مصطفى صادق الرافعي – مكتبة أنيس – الجزائر –

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية